730

روايات عبير

الأصليَّة

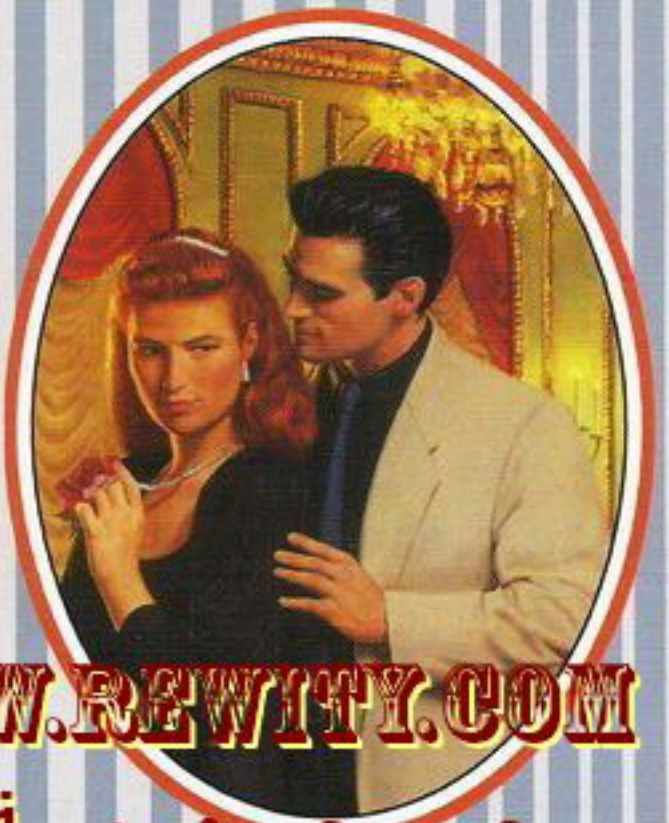

WWW.REWITY.COM

مرمورية

Frances Ker

حُبٌّ وحَنينٌ

روايات عبير

«حُبٌّ وحَنينٌ»

تُسافر «كولبي» بعيدًا عن وطنها، عن أرض طفولتها وأحْلامها، وتظلّ تحلُم بالعودة إليه، إلى ترابه الذي يَحْتضن كلّ عَظَمة القارة الأسترالية وأسَاطيرَها، وإلى ابن عمها الذي تحبّه والذي يُضاهي أرضه صلابةً وعنفوانًا. كان المثل الأعلى الذي طالما تطلعتْ إليه وهي طفلة. وحينَ تعودُ بعد اغْتراب طويل تكتشفُ أنها ليستْ الفتاة الوحيدة في حياته، وأنها لم تَعُد طفْلة، ويبدأ الصراعُ العنيف بين «روشيل» التي تحب ابن العَمّ «دارت» وَيحاولُ بشتّى الطرق التفْريق بينه وبين «كولبي» بطهرها وبراءتها. فهل تصمُد أمام إغراء منافَستها وجاذبيّتها، أم تعود إلى الاغْتراب مرةً أخرى؟

ثمن النسخة

لبنان	3000 ل.	قطر	10 ريال
سوريا	100 ل.	مسقط	1 ريال
الأردن	1.5 دينار	مصر	6 جنيه
السعودية	10 ريال	المغرب	30 درهم
الكويت	750 فلس	ليبيا	5 دينار
الإمارات	10 دراهم	تونس	2.5 دينار
البحرين	1 دينار	اليمن	300 ريال

ISBN 995338021 -X
9 789953 380216

العنوان الأصلي لهذه الرواية

Stranger At Winterfloods

تأليف

Frances Ker

الغلاف بريشة الفنان

Patrice Gordon

WWW.REWITY.COM
مرموريـة

حب وحنين

(730)

الناشر

المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

الإدارة العامة والتوزيع

تليفون : **00 961 9 212 666** – فاكس : **00 961 9 212 665**

ص.ب **374** جونيه – لبنان

Email: info@inter-press.org www.inter-press.org

وكلاء التوزيع

دار ميوزيك – دار البشير – دار إي بي سي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعًا باتًا نقل أي جزء أو قسم من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

- 5 -

- 1 -

الطائرة تحلق بهم الآن فوق بلاد «كينغ» على بعد 4800 كيلومتر إلى الجنوب الغربي من مقاطعة «كوينزلاند». الأرض الممتدة تحتهم تحتضن في ترابها كل أمجاد وعظمة القارة «الأسترالية». بلاد قديمة شهد تاريخها العريق مغيب ملايين الشموس قبل أن يطأها الإنسان. وتسارعت خفقات قلب «كولبي». فالطبيعة حولها كانت تحمل معنًى خاصًا يتجاوز الجمال الظاهري للأرض الحمراء المتمردة، الغارقة منذ الأبد في نار الشمس. تأثير بالغ فيها يشعرها بالدماء تضج في عروقها، والحياة تسري في أعماقها، هذا عدا ذاك الإحساس العميق بالانصهار في روعة الطبيعة التي تجمع بين القساوة والحيوية. ظلال الألوان المتماوجة بين الأصفر والبرتقالي والأحمر تجتمع كلها في شعلة نارية تتراقص بجنون فوق المساحات الشاسعة. إنها منطقة غامضة وجذّابة وغنية بأساطيرها الحالمة التي تحميها الصخور الملتهبة، والسهول الفضية، ورمال الصحارى التي لا نهاية لها. الشمس تتصدّر السماء الزرقاء الصافية؛ لترسل أشعتها دون تردد. فتتوج الأرض بهالة من الجلال والعظمة. إنها أرض قاسية ترقص فيها الحيوانات قرب الواحات، وتزهو الببغاوات بألوانها المرحة التي تزيدها الشمس روعة وفرحًا، فتتمايل زهوًا إلى جانب الطيور الأخرى التي تغني بسعادة قرب النهر الصغير، حيث تلهو بجعة غافلة بنفسها عن صقر منتصب على تلة قريبة مترصدًا فريسته.

وبلاد «القناة» أو «شانيل كانتري» ما أقساها في وقت الجفاف! وما أروعها بعد هطول الأمطار! عندما تصبح متوحشة الجمال، وكأنها بعض من الجنة الموعودة. عالم خيالي الألوان، تطرزه الزهور في أبعاد متوالية في لوحة تتألق بألف لون ولون. حتى الصحراء تحيا حين تحولها الأمطار إلى مساحات تزينها زهور الأكاسيا. صحراء ولكنها ليست بصحراء فهي تحتاج إلى الماء فقط رمز الحياة، لتولد الحياة. والجو بخلوّه من الغبار، صفاؤه يخدع النظر،

ويلهو بزرع السراب هنا وهناك ساخرًا بالإنسان وبعيونه المتعبة. ويركض الهواء مكتويًا بنار الشمس، فيهب كالشعلة ذات البريق الحاد فوق تلال الرمل، وبين السهول؛ ليكبر الحلم، وتتردّد انعكاساته في المساحات الفضية التي أكسبتها الشمس بريق المرايا. إنها أرض السراب، حيث تظهر الأشباح فجأة، فيطال رأسها السحب، وترتجف الشجيرات الصغيرة تحت أقدامها. ويخرج العمالقة من السهول المرتعشة، فتتباعد واحات المياه السحرية عندما يحاول أحد الاقتراب منها. إنها أرض يحولها الضوء إلى وهم.

«يا حبي. يا بلادي» غنّت «كولبي». واحتوتها سعادة عارمة أحسّت بها تصل إلى حافة الألم. فتحتها تمتد أسطورة من البطولة والحرية نسجت خيوطها صورة «ناثانيل كينغ»، الشاب البريطاني المغامر الذي شقّ طريقه إلى «أستراليا» من «الأرجنتين»، و«باتاغونيا»، وإلى حقول الذهب في «بالارات»، و«بنديغو»، يشده السحر الخفي النابع من أول معدن ثمين يعرفه الإنسان. «ناثانيل كينغ»... «كينغ» الأسطورة. ما من أمة أخرى كانت تستطيع أن تصهر مثل هذا الرجل. ولد في جو مفعم بالحب والأمان والاستقرار، لكن روحه المغامرة التي ترفض القيود والحدود، لم يكن يرضيها أو يشدها إلا التحدّي الموجود في عالم جديد لم يروضه الإنسان. ودفعه حسن طالعه إلى أرض «كوينزلاند» في أواخر العام 1880. أرض أبدية الغموض والخصب، وبلاد غنية بالخيول والمواشي. هنا استقر مسلحًا بيديه اللتين أرهقهما التعب، وبقبضة من حجارة الذهب، وبزوجة تضاهيه صلابة، وبإصرار على قبول التحدي؛ ليبني «كنغارا» التي أحب، ويكون الرائد في تجارة صغار العجول. وخلال السنوات العشر التالية، لحق به أشقاؤه الثلاثة، بعدما أثارتهم رسائله المتفائلة، ووعوده لهم بأرض تفوق بحجمها أي مقاطعة بريطانية.

«إدوارد كينغ» الشقيق الأكبر، اختار مساحات كبيرة من الأراضي في أواسط «كينغزلاند»، ورسم «مائيو كينغ» دائرة واسعة حول بضعة آلاف من الكيلومترات المربعة في المنطقة الشمالية. أما «كوينتن كينغ» فلحق بشقيقه

في «كنغارا»، ليكون ولده رفيقًا لوريثها «سيروس كينغ»، الفتى الذي كان يضاهي والده صلابة وعنفوانًا. واليوم تمتد أراضي عائلة «كينغ» من بلاد القناة، مرورًا بأواسط المنطقة، وصولا إلى الخليج. وكلهم من أصحاب المواشي، الأبناء يعتدون بأن آباءهم كانوا أيضًا من أصحاب المواشي. وانعكست شمس الظهيرة على أجنحة الطائرة ذات المحركين، وهي تغوص أكثر فأكثر داخل المنطقة النائية. استرق «بوب غافين» الطيار الشاب نظرة إلى الفتاة الجالسة بقربه. كان هناك شيء أكبر من الأمتار القليلة يفرّق بينهما. ففي الدقائق الأخيرة انطوت الآنسة «كولبي» في عالم خاص بها تسيطر عليه «كنغارا». أخذ يدرس جانب وجهها باهتمام. رعشة رضا واسترخاء تهز ذقنها وهي تحاول السيطرة على التوتر الذي تفضحه كل حركة في جسمها الرقيق وكسر صوته حاجز الصمت.

– والآن ما رأيك يا آنسة «كينغ»؟ هل ما زالت البلاد كما تتذكرينها؟ وللحظة نظرت إليه كأنها لم تره قط في حياتها. ثم انفرج فمها عن ابتسامة حالمة. وقالت:

– لم تتغير تقريبًا، يا سيد «غافين»، رغم الأعوام الثمانية التي مرّت على آخر مرة رأيتك فيها. وطيلة ذلك الوقت كان لديّ إحساس غريب بأنّي تائهة في أرض لا أنتمي إليها. أما الآن فأنا في أرضي مجددًا. صوتها تردّد خفيضًا متوترًا، فترك في أذنيه انطباعًا مثيرًا. وتابعت حديثها دون أن تحول عينيها عن الأرض القريبة منها:

– تخيّل فقط، يا سيد «غافين»، أن «مصر» و«روما» و«اليونان» و«بابل» كلها مجتمعة هنا. إنها أرض غريبة وغامضة، لكني أشعر بسيطرتها وبنارها تحرق عظامي. ابتسم وهو يبحث بعينيه عن أدق الاختلاجات في جانب وجهها. انفعالها مسّ وترًا رقيقًا في قلبه، وكذلك الإشراقة الناعمة التي توّجت تقاطيعها الشابة.

– أنت تحملين لهذه الأرض حبًا عميقًا. أليس كذلك يا آنسة «كينغ»؟

لاألومك إنها جوهرة هذا الجزء من العالم. وأضاف بسرعة:

– اسمي «بوب» يا آنسة «كينغ». نظرت إليه «كولبي» مبتسمة، وهي تعي اهتمامه بها لانشغالها بالذكريات التي عادت لتحيا في أعماقها. سقطت السنوات؛ لترجع طفلة صغيرة في طريقها إلى الينبوع حتى صوتها صار أكثر طفولة وحلمًا.

– هل تعلم بأني أمضيت أجمل أيام طفولتي في هذا المكان؟ كنت أجري بين التلال، والأنهار، والسهول، لأحترق بنار الشمس، وأتعلم لغة الطبيعة، والحياة المتوحشة، وأنواع الورد، وتقاليد السكان الوطنيين. وكنت أدور في زورق ابن عمي «دارت» عندما كان يدعني أفعل ذلك. كان بطلا بالنسبة إليّ وكان طويلا وقويًا وجريئًا.

– أصدّقك. إنه صلب كوالده. الكل يهاب «دارتلاند كينغ» ويحترمه. إنه رجل مميّز، لكن المرء يستطيع التقرب منه. وصمت «بوب غافين» عندما شعر بأنه سيتكلم أكثر من اللازم. ففي حياته، كان «سيروس كينغ» معروفًا بتسلطه وديكتاتوريته. هزّت «كولبي» رأسها حالمة، وهي تمرر أصبعها فوق عظمة أنفها الصغير.

– «دارت» كما أذكره لم يكن تماما كالعم «سيروس». كان فيه الكثير من والدته. العمة «راشيل» ربتني. هل تعرف ذلك؟ كنت أحبها كثيرًا، رغم أنها لم تكن عمتي فعلا. «سيروس كينغ» ووالدي كانا أولاد عم، ورفيقي صبا. حضنتنا العائلة، أبي وأنا، بعد وفاة والدتي. كنت في الرابعة من عمري. وحاول «بوب غافين» أن يكمل القصة بصوت فيه الكثير من الود والاهتمام.

– وعندما لقيت السيدة «كينغ» مصرعها في الحادث الأليم، عدت ووالدك إلى المدينة. هزّ رأسه بالإيجاب وهو يحاول أن يسترجع في ذاكرته كل أطراف الأحاديث التي سمعها في السنوات الماضية. كان من المعروف أنه جرت وقعة بين الأقرباء عندما أعلن «سيروس كينغ» عزمه على الزواج مجددًا، بأرملة لها ولدان. فالقرار هذا، برأي غالبية الناس، جاء مبكرًا خاصة أنه لم يمضِ على

وفاة السيدة «راشيل كينغ» إلا أربعة عشر شهرًا. لكن أحدًا لم يكن يعلم أن «برادفورد كينغ»، والد «كولبي»، كان يخفي في أعماقه حبًا سريًا لـ«راشيل» الجميلة إلى جانب الإعجاب والتقدير. شعرت «كولبي» بمقدار الألم الذي مزق والدها عندما شرع «سيروس كينغ» يبحث عن زوجة جديدة، قديرة بما فيه الكفاية لتسلّم شؤون المنزل الواسع. و«كنغارا» كانت تحتاج إلى سيدة، وكان من واجبه أن يجد واحدة. زواج المصلحة بدا وكأنه الحل الوحيد الذي فرض ذاته. ولم يسامح «برادفورد كينغ» ابن عمه على ما فعل، ورفض طوال حياته حتى أن يسمع كلمة واحدة في صالحه. كان جوابه الدائم: كيف يستطيع أيّ شخص كان استبدال «راشيل»؟ وكيف يأمل حتى مجرد المحاولة؟ وضاعفت الأعوام من مرارته. وكانت سنوات مليئة بالوحدة بالنسبة إليهما معًا. غريب حقًا أن تكون أفكار والدها توجهت إلى «دارت». أو ربما الأمر ليس بهذه الغرابة. فـ«دارت» فيه الكثير من خصال والدته، وكان هذا كافيًا بالنسبة إلى رجل محتضر. فلقد أحبّ «دارت» ورأى فيه الابن الذي كان من الممكن أن ينجبه. «سيرعاك يا عزيزتي كما فعلت والدته قبله». وامتلأت عينا «كولبي» بالدموع. كانت هذه تقريبًا آخر كلمات قالها لها والدها قبل وفاته. والآن أصبح «دارت» ولي أمرها، والوصي على أملاك والدها. ابن عمتها «دارت»... بطل أحلام طفولتها...

على الأرض ظهرت سيارة كبيرة تتسابق والتلال في محاولة لإرهاب الصقور، وبعد عدة انحناءات ترجّل السائق ليشير بذراعيه في حركات دائرية، دلالة على أن المدرج صار جاهزًا للهبوط. نظر «بوب غافين» إلى الراكبة الشابة قائلاً:

– ضعي حزام الأمان يا آنسة «كينغ» سنهبط. أطاعت «كولبي» فورًا وقلبها يخفق اضطرابًا. ودارت الطائرة الصغيرة مرّات عدة في الجو لتهبط أخيرًا دون أن تثير حولها غيومًا من الغبار. أرخت «كولبي» حزام الأمان وجلست تنتظر. حان الوقت لتلتقي بعائلة «دارت» الجديدة. زوجة والده «بيللا»، و«ستيفن»

www.rewity.com

الذي يماثلها عمرًا، و«سوزان» التي تخرجت أخيرًا في الجامعة. كانوا غرباء تمامًا بالنسبة إليها. حرص والدها على ذلك. هدأت الطائرة تمامًا، ففتح «بوب غافين» الباب، وحمل «كولبي» بين ذراعيه ليضعها برقة على الأرض الغنية الحمراء. ولأول مرة منذ ثمانية أعوام طويلة، تشعر «كولبي» بأرض «كينغ» تحت قدميها من جديد. عاد السحر القديم ليغلفها وكأنها لم تبتعد عنه قط. الأرض الخالدة لا يمكن أن تتغير تحت أشعة الشمس، وظلالها مازالت غارقة في وهج الذهب. وصرخ في داخلها صوت رنّ صداه كناقوس كبير: هذه هي «كنغارا»... إنها في أرضها ثانية.

- 2 -

لن تنسى «كولبي» أبدًا يوم عودتها إلى الجذور. على جانبي مدرج الهبوط اصطف حوالي أربعين شخصًا من السكان الوطنيين من خدم وعمال المزرعة الكبيرة. الكبار منهم في السن ارتدوا ثيابهم التقليدية الزاهية، وزينوا رؤوسهم بالألوان الصارخة والريش. أما أجسامهم فتألقت بخطوط من الأبيض والأحمر والأصفر. وما إن وطأت «كولبي» المدرج حتى ارتفعت الأصوات مرحبة، وتمايلت الأجسام على إيقاع أقدامهم تضرب الأرض وهم يغنون بلهجتهم الوطنية. لكن «كولبي» كانت تفهم جيدًا ما يقولون «أحبك. هل أنسى من أحب؟ لا. عودي إلى الينابيع السعيدة». واغرورقت عيناها بالدموع. أحسّت بكل عواطفها تتفجر في تلك اللحظات. معظم هؤلاء الناس اختارتهم ودربتهم العمة «راشيل»، فبرهنوا عن وفاء وإخلاص للبيت الذي ضمهم. الكبار منهم أمضوا سنوات عدة من عمرهم في خدمة عائلة «كينغ»، للاهتمام خاصة بالأطفال البيض الذين وُضعوا تحت رعايتهم.

«بن» العجوز وقف في مقدمة المستقبلين. هو أحد كبار قبيلة «الكنغارا» تلقى ثقافة الرجل الأبيض فاستوعبها جيدًا دون جهد، لكنه لم يفقد شيئًا من

حضارته الخالدة. وبدا وجه العجوز مشرقًا بلون نحاسي تحت شلال من الشعر الأبيض. وتوجّهت «كولبي» إليه مباشرة، مادّة يدها بمحبة:

– أنت لا تتغيّر يا «بن». تمامًا كالأرض المحيطة بك. أشرق وجه العجوز فخرًا واعتزازًا، وانحنى يحييها باحترام، وعيناه ترقصان فرحًا.

– أهلا، يا آنستي، أهلا. نادرًا ما كان يتكلم، لكن «كولبي» أحسّت أنه يحتضنها بالنظرة التي يغمرها بها. ترنّحت قليلا وهي لم تزل واقفة في مكانها. لقد سافرت حوالي أربعة آلاف كيلومتر في الأربع والعشرين ساعة الماضية. وضع «بن» يده على كتفها بحنان قائلا:

– أعتقد أنك متعبة يا آنستي. ضحكت «كولبي» بهدوء، فرنّت ضحكتها وكأنها صرخة إرهاق.

– أنا تعبة جدًّا يا «بن». لكن كم هي رائعة العودة إلى الوطن! إنها المرة الأولى بعد ثماني سنوات. لكنها لا تزال كما الأمس، ورائحتها كما الأمس مزيج من عطر الورد والأشجار. ابتسم مؤيدًا، واجتمعت بشرته الداكنة في شبكة رقيقة من التجاعيد الرمادية. قال ببطء:

– ها هو سيدي. فاستدارت «كولبي» لتلاحظ للمرة الأولى سائق السيارة النحاسية اللون التي تحمل حرف الكاف محفورًا بالذهب. كان شابًا رقيق الجسم، تبرز تقاطيع وجهه الجذاب بحدة تحت تاج كثيف من الشعر الأسود. نزع قبعته العريضة وانحنى لها باحترام بالغ، فيه شيء من الأداء المسرحي. ضحكت «كولبي» ومدّت يدها مرحبة.

– لابد من أنك «ستيفن». ابتسم لها وأمسك بيدها الممدودة.

– لا أحد غيري يا آنستي. المرشح الثاني لوراثة الإمبراطورية في حال حدوث شيء ما للأخ الكبير «دارت». أجابت «كولبي» بسرعة وفي صوتها شيء من الاستغراب:

– نأمل ألاّ يصيبه شيء إلاّ بعد عمر طويل. أنا متعلقة جدًّا بابن العم «دارت». فردّ «ستيفن» بعفوية:

www.rewity.com

– ومثلك معظم الفتيات، يا آنسة «كولبي». «دارت» من أكثر العزاب شعبية لدى النساء. وأنا بعده طبعًا. أجابته بسخرية:

– كم أحسدك يا«ستيفن». واستدارت لتراقب «بن» الذي كان ينقل حقائبها إلى السيارة وإلى جانبه «بوب غافين» يحاول جاهدًا أن يفتح حوارًا مع العجوز. ففي المنطقة اشتهر بأنه أفضل صيّاد في البلاد، وأروع من يروي النكات. هذا إذا تمكن المرء من أن يجعله يتكلم. وعادت «كولبي» بنظرها إلى «ستيفن»، فأسرع يقول:

– هل تشرفنا الآنسة «كولبي» بتفقد الصفوف؟ ولم تخلُ نظرته من عبث ساخر وهو يفحص وجهها الصغير.

– يسرني ذلك يا«ستيفن». ومشت في اتجاه صفوف السكان الأصليين المنتظرين. الوجوه كلها اتجهت صوبها باحترام ممزوج باعتداد واضح بالنفس، وبفخر أكيد بعرقهم. دارت «كولبي» بين الصفوف مبتسمة للجميع، محيية بالاسم الوجوه الأليفة التي عرفتها عندما كانت طفلة.

– كنت رقيقة جدًا ومتواضعة في معاملتك لهم. نحن لم نشهد مثل هذا الاستقبال عندما جئنا إلى هنا. هكذا علق «ستيفن» فور عودتها إليه. فأجابته «كولبي» بصراحة:

– آسفة لذلك يا«ستيفن». وأود هنا أن ألفت انتباهك إلى أني لم أكن أتظاهر بالتواضع. أنا أحب هؤلاء الناس. كبرت بينهم ومعهم. لو استطعت أن تكسب ثقتهم فإنهم يصبحون أوفياء لك. كانت عمتي «راشيل» تقول إن راحتهم يجب أن تكون من أهم اهتماماتنا. كانت سيدة عظيمة.

– لا شك في ذلك يا آنسة «كولبي». ما زلنا نسمع الكثير عنها من كل زائر يمر بالمزرعة. كان يتكلم بمودة قريبة من الطابع الرسمي. وفجأة ضرب رأسه بكفيه وكأنه تذكّر أمرًا مهمًا:

– أمي و«سوزان» تنتظراننا. ذهب «دارت» لزيارة عائلة «تينانت» المجاورة لنا على الحدود الشمالية الشرقية. رفعت «كولبي» حاجبيها متسائلة:

– «التينانت»؟ لا تقل إنهم اشتروا «موغارا» من العقيد العجوز؟

– العجوز توفي منذ أربع سنوات بالسكتة القلبية. لابد من أنه كان متقدمًا جدًا في السن، وعائلة «تينانت» استقرت مكانه الآن. إنهم بالفعل أناس متحضرون من النوع الذي يصلح أن يجاوره المرء. تمتمت «كولبي» بشرود:

– حقًا؟ العقيد العجوز كان مؤسسة قائمة بحدّ ذاتها في هذه البقعة النائية، رائد المدرسة القديمة. إنها تذكر كم كان معتدًا بنفسه وبإرادته الحديدية، لهذا ساءها أن تسمع أحدًا يتحدث عنه بهذا الاستخفاف. ولاحظ «ستيفن» انزعاجها فقال:

– آسف. أخطأت أليس كذلك؟ أعرف أن «دارت» كان يقدر العجوز كثيرًا لكنه كان يبدو جافًا وقاسيًا.

– ربما لكنه كان يملك روح النكتة والمرح أيضًا. وأشرقت ابتسامتها الرائعة فتجاوب معها بسرعة.

– على أي حال، يا آنسة «كولبي»، نحن سعداء جدًا لوجودك معنا. يشعر المرء بالوحدة هنا دون فتيات جميلات يتحدث إليهن. وتسلّلت إلى عينيه الزرقاوين نظرة حائرة. فابتسمت «كولبي» لتساؤله الصامت.

– أعرف ماذا تقصد. أعتقد أن استعداداتك الطبيعية لها علاقة بالأمر يا«ستيفن»! فقهقه الشاب عاليًا.

– الآن أنا لا أعرف ماذا تقصدين. ومع هذا هناك متسع من الوقت. تعالي يا «كولبي» يجب أن نودع «بوب». لابد من أنه يرغب في الإقلاع قبل حلول الظلام. وقبل أن ينهي عبارته اقترب منهما الطيّار الشاب. سألها بجدية يناقضها البريق المرح في عينيه:

– هل كان كل شيء على ما يرام يا آنسة «كينغ»؟

– نعم. شكرًا يا سيد «غافين»... أقصد «بوب». لم أكن أتوقع رحلة بهذا الهدوء.

– شكرًا وأهلا بك دائمًا. عليّ أن أرحل الآن. «ستيفن» هل لك أن تبعد

www.rewity.com

الآنسة «كينغ» عن المدرج؟ لا أعتقد أنها تحب طعم الغبار. وأصرّ «بوب» على مرافقتهما إلى السيارة، لكنه خصّ «كولبي» بجملته الوداعية:

– سأراك قريبًا. وفرحت «كولبي» بالوعد. ففي هذه الأرض النائية القليلة السكان، يتخذ الاتصال بإنسان آخر أهمية لا تعرفها المدن. أدار «ستيفن» محرك السيارة، وأخذ يطلق آلة التنبيه تحية لـ«بوب» الذي وقف بعيدًا يلوح لهما مودعًا. أنزلت «كولبي» زجاج النافذة لتودع بدورها المستقبلين الذين بدأ شملهم يتفرق. وأخيرًا استراحت في مقعدها، وأخذت نفسًا عميقًا.

– كان الأمر رائعًا. أجاب «ستيفن» وكأنه يتنبه للمرّة الأولى:

– نعم. وامتزجت ضحكاتهما. واسترق «ستيفن» نظرة إلى القادمة الجديدة، ابنة عم «دارت» الصغيرة. إنها صغيرة بالفعل لكنها ليست أبدًا كما تصوّرها. وتختلف أيضًا عما توقعته والدته وشقيقته «سوزان». فبالإضافة إلى جمالها كان لصوت «كولبي» طابع مميز يجمع بين الدفء والأنوثة الفائقة. إنه من ذاك النوع من الأصوات، الذي يجد الرجال أنفسهم يستمعون إليه دون الاهتمام فعلا لما يقول. تُرى كيف ستعاملها نساء المنزل، والدته و«سوزان» و«روشيل تينانت» التي فرضت نفسها كفرد من العائلة على الرغم من أنها لا تعني له أي شيء شخصيًا؟ وتختفي كل رقتها وادعاءاتها عندما لا يكون «دارت» موجودًا. وأخذ «ستيفن» يحدّق إلى أسراب النعام وهي تهرول بعيدًا عن المدرج، قبل أن يتفوه بأول شيء يرد على ذهنه.

– أعتقد أنك افتقدت والدة «دارت». يقال إنها كانت سيدة عظيمة. بدا صادقًا في قوله، لذا أجابته «كولبي» بعفوية:

– نعم، ولا زلت أفتقدها يا«ستيفن». كانت امرأة رائعة، طيبة، نشيطة ونقية، تحيط بها هالة من الإشراق.

– الرجال يتزوجون أمهاتهم أحيانًا. وبسرعة تدارك خطأه، فأردف موضحًا:

– تعرفين ما أعني؟ أقصد أن الرجال يبحثون عادة عن الفتاة التي تشبه

والدتهم. دُهشت «كولبي» لما قال، وبلعت ريقها بصعوبة قبل أن تعلق قائلة:

– حسنًا. أفهم فكرتك يا «ستيفن». قل لي هل تتحدث بصورة عامة أم أنك تقصد شخصًا معينًا؟ تفحصها «ستيفن» بلمحة خاطفة.

– الزمن وحده كفيل بالإجابة، آنسة «كينغ». من يعرف ماذا تخبئ له الأقدار؟ أجابت «كولبي» حالمة:

– وماذا عنك؟ وفجأة تحول صوتها من الجدية إلى المرح:

– انظر يا «ستيفن». ما أروع التلال أمامنا! الأعشاب الخضراء تتأرجح عليها وكأنها تتمايل فرحًا بالضوء المنسكب. شلالات من الفضة تتلألأ بينها الحصى كأحجار كريمة. «كنغارا»، هأنا آتية إليك. افتحي أبوابك لاستقبالي. وكأن السيارة فهمت شوق الفتاة إلى أرض أحلامها، فأسرعت تشق طريقها وسط النباتات الكثيفة، التي احتجت على الاستخفاف بها بأن استجمعت كل عطرها ترسله موجات من الطيب. تسلقت الأشجار الباسقة، التي تحول ظلالها الوافرة أكثر الأيام حرًا إلى نسمات. وفكّت السيارة الحصار الأخضر عنها، لتسرع غير مبالية برائحة المسك التي تداعب الهواء وكأنها تريد ملاعبته. وعندما يئست الأشجار من استبقاء «كولبي»، أرخت أغصانها على المنازل الصغيرة المحيطة بالمزرعة وبالبيت الكبير. وتجوّلت عينا «كولبي» في الطريق المعبّد بحصى بيضاء، لتستقرا أخيرًا على بيت طفولتها المنتصب باعتداد، متوجًا بالرداء القرمزي الذي خلعته عليه شمس المغيب. «كنغارا» الرائعة! لم تنسها قط. هذه الواحة الصغيرة المستلقية بكسل في أحضان الزهور البريّة، مستكينة إلى الأيدي الصبورة المحبة التي تعتني بكل حبة من ترابها. حتى وهي طفلة، كانت تقف طويلا أمام انعكاسات الشمس على السور الحديدي الذي يحيط بالشرفات كتخريج رقيق سهرت على نسجه أيدي النساء، فاستبقى نور الشمس ليعكسها مزيدًا من الأضواء على عالم «كنغارا» السحري. البيت الكبير رفض منذ تأسيسه كل مظاهر الحضارة الزائفة، واستبدلها بجمال الأرض المتوحشة العذراء، فكانت كل حجارته

جزءًا من صلابة الصخر ونعومة الرمال.

كم هو جميل هذا البيت العريق! ربما أجمل أيضًا من الأيام الخالية عندما كانت طفلة تسري الحرية في دمائها، وفي عقلها الصغير الدائم الحيرة والتساؤل. اليوم لم تعد طفلة. والسنوات الطويلة الموحشة التي أرهقت كاهلها في أيام الغربة، أصبحت مجرد ذكرى. وتوقفت السيارة أمام الشرفة الأمامية، حيث وقفت «بيللا» و«سوزان» تنتظران الضيفة الشابة. ونزلت «بيللا» الدرجات القليلة، وثوبها البنفسجي يتأرجح بأناقة حول جسمها الطويل الرقيق. مظهرها ومشيتها كانا كما يتوقع المرء من سيدة «كنغارا» أن تبدو وتمشي. حتى العم «سيروس» لم يكن ليستطيع وحده تدبير شؤون المزرعة الكبيرة دون مساعدة سيدة قديرة تقف إلى جانبه. لكنها لم تستطع أن تقنع والدها بذلك. فهذه المرأة ليست بالعمة «راشيل»، على الرغم من شخصيتها المميزة وأناقتها الواضحة حتى عن بعد. واجتازت «بيللا» الأمتار القليلة التي تفرق بينهما، واتسعت عيناها الزرقاوان الباردتان عندما استقرتا على «كولبي». ثم انفرجت شفتاها عن ابتسامة غاية في الجاذبية.

– أهلا بك في «كنغارا» يا عزيزتي. نحن سعداء لأنك معنا. وتحوّلت إلى ابنها قائلة:

– انقل حقائب «كولبي» إلى الشرفة يا«ستيفن» واتركها هناك. وصعد «ستيفن» الدرجات الأربع المؤدية إلى البيت وهو يتظاهر أنه يعاني صعوبة بالغة في حمل الحقائب. ابتسمت «بيللا» لحركاته المسرحية وعلقت قائلة لـ«كولبي»:

– هذا هو «ستيفن». تعالي الآن لأعرفك إلى «سوزان». اضطر «دارت» إلى الخروج. استنجد به أحد الجيران لأمر ما. ولحقت «كولبي» بـ«بيللا»، لتحيّي الفتاة المستلقية بلا مبالاة على سور الشرفة الحديدي. وفاجأهما صوتها الواضح الشاب عندما قالت:

– أنت لست كسائر فتيات «دارت». قالتها باستغراب وكأنها ترى الأمر غريبًا لدرجة لا يمكن معها تصديقه. انزعجت «بيللا»، واشتعل وجهها

الجذاب غضبًا. قبل أن تنظر إلى «كولبي» معتذرة.

– «كولبي» عزيزتي، أودّ لو تعذرين «سوزان». إنها تمرّ حاليًا بفترة عصيبة. ورمت ابنتها بنظرة قاسية.

– أما أنت يا«سوزان» لو تتذكرين أبسط أصول الأدب. تمتمت «سوزان» الكلمة مرغمة:

– آسفة. ومع هذا الاستقبال الجاف، وجدتها «كولبي» فتاة جميلة، أو كان من الممكن أن تكون جميلة لو اهتمت أكثر بمظهرها الخارجي. فهي طويلة القامة، رشيقة الجسم، ولها ملامح وجه والدتها الجذاب. شعرها الأسود رفعته إلى الوراء على شكل ذيل الحصان، أما سروالها وقميصها فكانا في حالة رثة. وابتسم «ستيفن» مداعبًا شقيقته:

– لا تهتمي بها يا«كولبي». إنها الابنة الوحيدة والمدللة للسيدة «كينغ»، في مزرعة «كنغارا». تجهّم وجه «سوزان»، واضطرت الأم إلى التدخل ثانية بما تبقى لها من صبر:

– يكفي يا «ستيفن». لا أدري ما ستظنه «كولبي» بنا.

– فلنسألها. «كولبي» ما رأيك فينا؟ ولمعت عينا «كولبي» بضحكة مكتومة:

– سأحتفظ بحكمي حتى أتعرف إليكم أكثر. واستقرت ثلاثة أزواج من العيون عليها تتفحصها باهتمام. «سوزان» كانت محقة. الآنسة «كولبي كينغ» ليست كما توقعوا. ثيابها البسيطة العملية تفضح بخطوطها المدروسة توقيع أشهر دور الأزياء. ألم يقل لهم إنها من الفرع الفقير من عائلة «كينغ»، وإنه لا مال لديها يذكر؟ بشرتها المشرقة الفاتحة كانت مفاجأة لهم –فمعظم أفراد عائلة «كينغ» بشرتهم داكنة. «دارت» مثلا يبدو ببشرته النحاسية كالهنود الأصليين على الرغم من عينيه الغريبتين الفاتحتين– شعرها القصير الناري الخصلات يتوّج وجهًا رقيقًا، فيه خدّان عاليا الفكين، أما عيناها فواسعتان خضراوان تتألقان تحت حاجبين داكنين لهما حدّ السيف وميزات خاصة بهما. وفي عينيها أيضًا اعتداد واضح بالنفس، وإصرار التحدي مع لمحة من الشقاوة.

www.rewity.com

بشرتها الصافية لا تشوبها نقاط النمش التي ترافق عادة ذوات الشعر الأحمر، نتيجة حساسيتهن لأشعة الشمس. وابتسمت «كولبي» للانطباع المرتسم على وجوههم.

– ربما تطلعونني لاحقًا على رأيكم. وطبعًا كان «ستيفن» أول من تبرع بالإجابة:

– سنخبرك فورًا يا عزيزتي، نجحت في الامتحان. ولم تدع «بيللا» ابنها يكمل حديثه:

– هل سنبقى النهار كله واقفين نتحدث؟ تعالي يا«كولبي» فلندخل المنزل. وسبقتهم إلى غرفة الجلوس، ووراءها دخلت «كولبي». كم هي جميلة هذه الغرفة بمساحتها الواسعة التي يتوزع في أرجائها مزيج مدروس من الأثاث القديم والحديث! أشعة الشمس المحتضرة تسلّلت من النوافذ لتتكاسل على الخشب المشتاق إلى التقاطها، ولتحيي الخطوط الصفراء الذهبية التي تزيّن الستائر وأقمشة المفروشات. أشعلت «بيللا» الأضواء الكهربائية، فخرجت «راشيل كينغ» من الظلمة لتعود إلى الحياة. رسمها يتصدّر الغرفة وتسيطر عليها صورة امرأة جميلة في ثوب للسهرة بلون السماء، يتهدّل شعرها الطويل الأسود حول وجهها الجذاب الذي تزيده بريقًا عينان فيهما الكثير من السحر. ولم تستطع «كولبي» إبعاد نظرها عن اللوحة، حتى تناهى إليها صوت «بيللا»:

– لا شيء يتغيّر. أليس كذلك يا«كولبي»؟ آه نسيت أنك آتية من سفر طويل. لابد من أنك مرهقة. قال «ستيفن» مقاطعًا والدته:

– لا يبدو عليها ذلك يا أمي. فتجاهلته هذه الأخيرة لتتابع حديثها:

– «سوزان» سترشدك إلى غرفتك. «دارت» اختارها لك. أعتقد أنها غرفتك القديمة. سيكون لديك متسع من الوقت للراحة ولاستبدال ملابسك قبل موعد العشاء. آمل أن يعود «دارت» باكرًا.

– شكرا لك يا سيدة «كينغ».

– اسمي «بيللا». أو العمة «بيللا». إذا كنت تفضلين ذلك. على أية حال أنت قريبة «دارت». وبصراحة لا أعرف ماذا كان حالنا لولا وجوده.

– سأدعوك إذًا العمة «بيللا». ولحقت «كولبي» بـ«سوزان» إلى الجناح الغربي. لم يتغير شيء فعدا لمسة أو لمستين شخصيتين بقيت الأشياء كلها في مكانها. وقطبت «كولبي» حاجبيها وهي تتذكر لمحة القلق التي ظللت وجه «بيللا» عند ذكرها لاسم «دارت». عرفت من محامي العائلة أن «سيروس كينغ» لم يغيّر الوصية التي كتبها مباشرة بعد ولادة «دارت». وهذا يعني أن «دارت» ورث وحده «كنغارا» وكل الأراضي التابعة لها. أي إن زوجة والده وولديها يعتمدون الآن على طيبة «دارت» واستعداده للإنفاق عليهم. أمر غريب فعلا. لكن «سيروس كينغ» كان معروفًا بتصرفاته غير العادية، توفي في وقت كان الجميع يظنون أنه سيعمر طويلا. وأغلقت «كولبي» ذهنها عن هذه الأفكار فهذه ليست مشكلتها. فتحت «سوزان» باب غرفة «كولبي» وهي تبتسم هازئة:

– غرفة ابنة عم «دارت» العزيزة. ولم تنتبه «كولبي» لتعليقها الساخر، فالذكريات خطفتها على عتبة الباب لتعيدها سنوات عدة إلى الوراء.

– لا تهتمي بي يا «كولبي»، أعتقد أني مغرمة به كسائر الفتيات، وأظن أنك تحبينه أيضا. وانتزعت «كولبي» نفسها من حصار الذكريات لتحاول التركيز فيما تقوله الفتاة.

– آسفة يا «سوزان»، لم أسمعك.

– قلت إنك أيضًا مغرمة بـ«دارت».

– لا أستطيع أن أقول إني مغرمة بأحد. لم أعرف معنى الحب بعد.

– طبعًا لم تعرفيه. نسيت أنك من سلالة عائلة «كينغ» الصلبة.

– وهل هذا عيب؟

– لا... أحيانًا. لابد من أنك كنت تقدسينه وأنت طفلة. «دارت» يقول إنك كنت تركضين في كل أرجاء المزرعة كغزال برّي.

www.rewity.com

– هل قال ذلك فعلاً؟ غزال بري؟

– هل كنت كذلك؟

– تقصدين بريّة الطباع؟ نعم. ولست متأكدة أني أصبحت أليفة الآن.

– لا تتهربي من الجواب. أريد أن أحذرك منذ الآن بأن «دارت» وجد الفتاة المناسبة ونحن نوافقه على اختياره.

– تعنين أنك توافقين شخصيًّا على اختياره يا«سوزان». وابتسمت «كولبي» وهي تتوجّه إلى التسريحة المزينة بتماثيل رقيقة من الكريستال، وأخذت تلمسها بنعومة، تحمل في شفافيتها شخصية العمة «راشيل». ألوان الغرفة وحدها تغيّرت من الوردي والأبيض إلى العاج المحلى بالذهب. الستائر ومفارش السرير تألقت بلون أخضر فيه شيء من عمق عينيها. وعلى الجدران اصطفت مجموعة رائعة من الزهور الأسترالية البرية سجينة في إطارات ثقيلة من الذهب.

– غرفة مترفة أليس كذلك يا آنسة «كولبي كينغ»؟ حرص «دارت» على ذلك. لا بد من أنه تذكّر أخيرًا عينيك الخضراوين. لكن هذا لن يجديك شيئًا. ستعرفين ما أقصد حين ترين «روشيل تينانت»!

– أنا في شوق إلى معرفتها. وأود أن أذكّرك هنا يا «سوزان» بأن «دارت» يبقى ابن عمي، مهما كانت درجة جاذبيته لدى الأخريات. ولم تعد «كولبي» تحتمل استفزاز هذه المراهقة لها. لقد مرت بفترة عصيبة في خلال الأشهر القليلة الماضية وهي تحتاج إلى الراحة والاستقرار. لكنها عادت لتضعف أمام حيرة «سوزان» وقلقها.

– أود لو نصبح صديقتين يا «سوزان». أنا لن أبقى هنا الوقت الكافي لأعرقل مشاريعك يا عزيزتي.

– أنا صديقة «روشيل». تخبرني بكل ما يحدث معها. إصرار «سوزان» على متابعة الحديث دفع «كولبي» إلى أن تكون أكثر صراحة.

– آسفة يا«سوزان»، أنا تعبة. هل تعذريني حتى موعد العشاء.

– لا شيء يسرني أكثر... يا آنسة «كينغ». وألقت الكلمات الأخيرة وكأنها توجه إهانة كبيرة لـ«كولبي»، التي أغلقت وراءها الباب ضاحكة. ونسيت «كولبي» «سوزان» وهي تقف أمام النافذة العريضة تراقب تماوج الألوان بين البنفسجي والأحمر والوردي على الأفق الغربي، الذي رسم خطًا فضيًّا بين التلال والسماء. وهتفت «كولبي» عاليًا:

– أليس المشهد رائعًا؟! الأشياء كلها هنا رائعة الجمال. لم يعد «دارت» في موعد العشاء. فتناولوا طعامهم دونه. المائدة تألقت بمفرش أبيض أبرز لونه الشفاف بريق الأدوات الفضية وزخرفة الصحون الصينية الثمينة. وانتقلت بنظرها إلى أفراد الأسرة. كانت «بيللا» أنيقة جدًّا في ثوبها الحريري البنفسجي، اللون المفضل لديها. و«ستيفن» كعادته كان يضجّ نشاطًا وحيوية. أما التنازل الوحيد الذي قامت به «سوزان» أنها استبدلت بسروالها الرث آخر من الجلد. ولم يكن العشاء ناجحا على الرغم من أصناف الأطعمة الشهية التي برعت الطباخة في إنجازها. وابتسمت «كولبي» لمديرة شؤون المنزل وهي تنظف المائدة من الصحون المستعملة. سيدة صغيرة ممتلئة الجسم، في وجهها طيبة المزارعين، وفي عينيها ذكاء فطري. ولاحظت «بيللا» اهتمام «كولبي»:

– آسفة يا «كولبي». لم أعرّفك إليها. إنها السيدة «نيل إيفانز» زوجة كبير عمال المزرعة... «نيل» هذه «كولبي»، قريبة «دارت».

– أهلا بك في «كنغارا» يا آنسة «كولبي». آمل أن يكون العشاء أعجبك!

– كثيرًا يا سيدة «إيفانز». أنت طاهية ماهرة.

– عليّ أن أكون كذلك. «دارت» يحرص على إحاطة نفسه بالترف والأشياء الجميلة. واختفت في المطبخ لتعود بعد دقائق بالجبن والحلوى والبرتقال. فتمتمت «سوزان» ساخرة:

– طبعًا علينا أن نعمل جاهدين لإرضاء «دارت»، فيكون فخورًا بنا. تنهّدت والدتها في ضيق دون أن تقول شيئًا. وكي تقطع «كولبي» الصمت الثقيل الذي جثم على الغرفة غيّرت مجرى الحديث:

www.rewity.com

– أود مساعدتك قدر الإمكان، يا عمتي «بيللا»، طيلة الفترة التي سأمضيها بينكم. هل في ذهنك عمل ما أستطيع القيام به؟ علق «ستيفن» بمرح قائلا:

– لا تقلقي سنجد لك عملا. فأسكتته والدته بتعب:

– يكفي يا «ستيفن». أما أنت يا عزيزتي «كولبي» فشكرًا على اقتراحك. عندي لك... وتوقفت عن الكلام فجأة كأن الفكرة خانتها. فسارعت «كولبي» إلى القول:

– محاسبة، مراسلة... نهضت «سوزان» بغضب، وصرخت:

– أنا حائزة على شهادة في الطباعة على الآلة الكاتبة. لكن يبدو أني لست بالكفاءة الكافية. أو ربما لست بالمستوى الذي يرضي «دارت»، وأكتشف الآن أني لم أعد أعجب أمي أيضًا. حسنًا دعوا هذه الآنسة المذهلة تتسلّم كل المهام، وسنرى كيف ستتصرف!

– كفى يا «سوزان». قالها «ستيفن» بهدوء، ودون أن ينظر إليها. فابتعدت «سوزان» مسرعة قبل أن يفضح أحدهم الدموع السجينة في عينيها. واضطربت «كولبي» لنفور «سوزان» الواضح منها. فالتفتت إلى «بيللا» مستنجدة، لتجدها مستغرقة في تقشير تفاحة وكأن الحديث لا يعنيها. وعندما شعرت «بيللا» بحيرة «كولبي» وحزنها، حاولت تبديد الغيوم بتغيير الموضوع.

– أنت لا تشبهين كثيرًا أفراد عائلة «كينغ»، يا «كولبي». لابد من أن فيك الكثير من ملامح والدتك.

– أعتقد أن لي لون البشرة ذاتها. كنت في الرابعة من عمري عند وفاتها، ولذا لم تسنح لي الفرصة لمعرفتها فعلا.

– الأمر محزن حقًا. ولاحظت «بيللا» الشحوب الذي ظلل وجه «كولبي».

– أنت مرهقة يا عزيزتي. يجدر بك الذهاب إلى الفراش باكرًا. وأحسّت «كولبي» بالإرهاق يصل إلى أطراف أصابعها. كانت تعرف أن السبب ليس رحلتها الطويلة إلى «كنغارا» بل توترها العاطفي. كانت تخشى هذا اللقاء الأول مع عائلة «دارت»، ولذا حشدت كل طاقتها الذهنية لتواجه مخاوف

طفولتها. الآن لم يعد هناك شيء تتوقعه، عدا رؤية ابن عمها «دارت». واستفاقت من أحلامها على صوت «ستيفن».

– هل تستطيعين ركوب الخيل يا«كولبي»؟

– طبعًا. أستاذي كان ماهرًا حقًا. أمضى «دارت» ساعات طويلة في تحسين أسلوبي.

– لـ«دارت» أسلوب خاص ومميّز في التعامل مع الخيول. رأيته مرة... وقاطعه صوت آنية تتكسّر في المطبخ، تبعه صوت السيدة «إيفانز» معنفًا الفاعل. وأغرقت «كولبي» في الضحك.

– آسفة يا عمتي «بيللا». لم أتمالك نفسي. ما زالت حيّة في ذاكرتي أصوات الأواني تتكسر على أيدي الخادمات الصغيرات اللواتي لا يعملن بجدية. ودخلت السيدة «إيفانز» الغرفة حاملة صينية القهوة.

– آسفة يا سيدة «كينغ». يبدو أن الصحون تنساب من بين أصابع الخادمة الجديدة كرمال الصحارى.

– آمل أن يتغيّر الوضع قبل أن نفقد الأواني كلها. دعي القهوة هنا يا سيدة «إيفانز» وعودي إلى منزلك فلابد من أن زوجك ينتظرك.

– ألا تعرفين موعد عودة السيد «دارت» إلى المنزل؟

– بصراحة لا.

– حسنًا سأذهب. تصبحون على خير.

– وأنتِ من أهل الخير يا سيدة «إيفانز». وبعد انتهائهم من تناول القهوة، عرضت «كولبي» تنظيف الطاولة من الأكواب والصحون، فأسرع «ستيفن» لمساعدتها، مما لفت انتباه «بيللا» التي علقت ضاحكة:

– هذه سابقة في «كنغارا»! أن يعرض «ستيفن» خدماته.

– لابد من أنه تأثير «كولبي» يا أمي. بعد ساعات كانت «كولبي» مستيقظة تحدق إلى الظلمة التي لم يكن يضيئها أي شعاع قمر. النجوم فقط كانت تتألق في السماء وكأنها أحجار من الألماس تناثرت بفوضى مدروسة. الهواء أبى أن

يخلد إلى النوم وأصر على متابعة صفيره الهادئ قرب جانب المنزل. خيّم السكون برهبته على جميع الكائنات ولم يجرؤ على تحديه إلا طائر ليلي اختفى في مكان ما يتنهد عاليًا.

وعلى الرغم من تعبها الشديد لم تتمكن «كولبي» من النوم. جلست في فراشها تستنشق رائحة الياسمين تحاول عبثًا أن تعرف سبب توترها. استرجعت في ذهنها صورة أفراد عائلة «دارت»، وتوقفت طويلا عند «سوزان» حائرة في تفسير نفور الفتاة منها. وقطع حبل أفكارها صوت سيارة تهدر من بعيد. ففي السكينة تفرض أصغر الأصوات ذاتها على الأعصاب الساهرة. نهضت «كولبي» من فراشها وأشعلت الضوء الصغير قرب السرير. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة والنصف. لابد من أنه «دارت» عائد من منزل «تيانت». ابتسمت حالمة. هو إذًا من كانت تنتظر! بحثت عن الرداء الذي تضعه عادة فوق ثياب النوم، فوجدته ملقى على مقعد قريب. تأملته طويلا. كم هو جميل هذا الرداء! ابتاعه لها والدها من «الشرق الأقصى». حريره الأخضر يضفي تألقًا مميزًا على عينيها، أما الفراشات المتناثرة عليه بألوان صارخة، فتزيدها رقة وأنوثة. رداء تستطيع وضعه أينما كانت. وارتدت «كولبي» الثوب، وضمته جيدًا عند الخصر. ثم وقفت أمام المرآة تسرح شعرها باهتمام. ولم ترضها صورتها المنعكسة في الزجاج المصقول فأضافت لمسة من أحمر الشفاه الوردي على شفتيها، لتمسحها بعد ثوانٍ. وأخيرًا جلست تنتظر مجيء «دارت»، وهي تحاول جاهدة السيطرة على توترها وترقبها.

«دارت»! أتراه تغير؟ هل أضفت عليه أحلام طفولتها تلك الصفات الرائعة التي تجمع بين القوة، والمرح، أو الجدية؟ وأطلت عليها ابتسامته المشرقة من وراء شريط الذكريات، فأحسّت للمرة الأولى في تلك الأمسية المتعبة، براحة عميقة غسلت تشنج أعصابها، واسترخت بهدوء على المقعد الوثير. وبعد دقائق، سمعت «كولبي» صوت سيارة تتوقف في الممر المؤدي إلى المنزل، تلاها صمت قصير، ثم وقع قدمين على الحصى. وترددت «كولبي» لدقائق معدودة،

قبل أن تفتح باب غرفتها لتنزل إلى الطابق الأسفل. خفاها الرقيقان لم يكن لهما أي صدى على الأرض الخشبية.

في الرواق كان الضوء خافتًا، وكذلك في غرفة الجلوس، أما المطبخ فكان يشتعل نورًا. تسللت إليه «كولبي» على أطراف أصابعها، ووقفت ساكنة على العتبة. كان «دارت» منحنيًا على مائدة الطعام، يتناول عشاء سريعًا ومؤلفًا من بيض، وحبتي بندورة (طماطم)، وقطعة جبن، ورغيف خبز. وعلى الرغم من أنه كان يدير ظهره لها، إلا أنه قال فجأة:

– لا تقفي هناك يا «كولبي». تعالي لأراك. وغصت «كولبي» انفعالا، لكنها حاولت أن تخفي توترها بتعليق ساخر:

– هل لك عينان في مؤخرة رأسك يا سيد «دارتلاند كينغ»؟

– فقط عندما يكون الأمر متعلقًا بك يا عزيزتي. ألا تذكرين كم مرة انتشلتك من النهر عندما كنت طفلة صغيرة؟ وبيطء استدار «دارت» ليتفحصها بحنان. لم يتغير وجهه كما عهدته ما زال قويًا، معبرًا، فيه شيء من القسوة ينساها المرء حين يغرق في عينيه الدافئتين. تنبع منه ثقة واضحة بالنفس، وانطباع بالسيطرة يصل إلى حد التعالي. لكنه تعالي الرجل الذي استطاع أن يحقق شيئًا مهمًا في حياته. «دارت» لم يتغير، أما «كولبي» فلم تعد طفلة.

– أهلا بابنة عمي الصغيرة. أخيرًا عادت الشاة الضائعة إلى المنزل. ومرّت الثواني بطيئة وهو يحدق إلى وجهها الجميل. وتلاعب شبح ابتسامة رقيقة على زاوية فمه قبل أن يقول مداعبًا:

– هذه هي ابنة عمي المشاغبة. ما زلت كما كنت عدا بعض التغيرات البسيطة هنا وهناك. لكن أخبريني أين ذهبت بالنمش؟ واقتربت منه «كولبي» بخطى مترددة.

– نمش؟ وجهي لم يكن قط مغطى بالنمش. ألا تتذكر يا «دارت»؟ وحاولت «كولبي» السيطرة على نبراتها حتى لا تفضح اضطرابها الداخلي.

– نعم أتذكّر يا عزيزتي، كنت طفلة بريّة لكننا سنسجنك في قفص هذه المرة.

www.rewity.com

خانها الجواب فابتعدت عنه لتشغل نفسها بإعداد طعام العشاء. راقبها «دارت» وهي تكسر البيض في الوعاء الكبير وكأنها تقوم بعمل مهمّ يحتاج إلى كثير من الانتباه. وأخيرًا رفعت عينيها إليه وقالت بحزم:

– ما زلت بريّة يا «دارت». لم ولن أتغير.

– معك لا يستطيع المرء أن يتوقع ما سيحدث لاحقًا. أعرف أنك لا تقصدين المشاغبة، فهذه طبيعتك الثارية. يبدو أن لون شعرك الأحمر له علاقة بتصرفاتك. الناريات الشعر معروفات بأنهن ناريات الطباع أيضًا. لكني مسؤول عنك الآن وأعرف أنك ستنفذين كل ما يطلبه ابن عمك «دارت» منك.

ولمعت عيناها ببريق شقاوة طفولية:

– أرى أنك لا زلت محتفظًا بتعاليك القديم يابن عمي العزيز. نسيت كم أنت عنيد.

– وأنت أيضًا. كنت دائمًا تتصرفين على مزاجك حتى وأنت طفلة. ووجدت «كولبي» نفسها تخفق البيض بعنف غير ضروري.

– لكني لم أعد طفلة يا «دارت».

– لاحظت ذلك. أصبحت فتاة كبيرة إذًا. على أي حال الكبيرات يُسبّبن مشاكل أكبر من الصغيرات. هذا هو رأي جميع الرجال المساكين. وضحك عندما لاحظ اضطرابها. تناول سيجارة، ووقف بتكاسل ليجيء بعود الثقاب.

– صحيح أني أعيش هنا في عالم للرجال، لكني أفكر في النساء أحيانًا، وخاصة ذوات البشرة الفاتحة. أشعل سيجارته وعاد إلى المائدة ليتابع قائلا:

– على أي حال «روشيل» هنا دائمًا. وللمرة الأولى تشعر «كولبي» بنوع من التوتر بينهما. جديد عليها هذا الشعور. فيه شيء من عالم الكبار، ولا علاقة له بأحلام الطفولة. وعندما لاحظت «كولبي» النظرة الساخرة في عينيه أسرعت تقول:

– آه، «روشيل»... نعم «روشيل» طبعًا. هل أرى قصة حب عاصفة في الأفق؟

انفرجت شفتا «دارت» عن أسنان ناصعة البياض. لكنه لم يتفوه بحرف واحد.

– فاجأتني يا «دارت».

– لماذا يا عزيزتي؟ الرجال يشعرون بالضجر أحيانًا. أم أنك لا تظنين أني صالح لقصص الحب؟ عضت «كولبي» شفتها وأشاحت بوجهها عنه.

– ما لك يا «كولبي»؟ لم الخجل؟

– لم أخجل. أدهشتني الفكرة فقط. وضحكت لتخفي انزعاجها حين لاحظت أنها ترتجف قليلا. وشغلت نفسها مرة أخرى بوضع مزيج البيض والأعشاب في المقلاة المشبعة بالسمن الساخن.

– ما أطيب هذه الرائحة يا«كولبي»! أنا جائع. لم أتناول أي طعام منذ وقت الغداء.

– لن يكفيك البيض إذًا. سآتيك بشريحة لحم. وأسرعت إلى الثلاجة تتفقد محتوياتها. وأخرجت قطعة كبيرة من اللحم، أخذت تقطعها شرائح صغيرة. وساد الصمت دقائق قليلة حتى انتهت «كولبي» من إعداد الطعام وترتيبه على المائدة.

– «دارت».

– نعم يا عزيزتي. هيا أفرغي ما في قلبك.

– لا تسخر منّي. أحاول أن أقول لك شيئًا: ساعدني.

– لا أريد مساعدتك.

– أنا أتكلم بجدية الآن. أريدك أن تعرف يا«دارت» أني قادرة على الاعتناء بنفسي. لم يكن هناك ضرورة لإرسالي إلى هنا وتحميلك مسؤوليتي. أنا أحب «كنغارا». أنت تعرف ذلك لكني لا أريد مضايقة أحد. لا عائلتك ولا...

وأمسك «دارت» بمعصمها وأخذ يشد عليه بقوة.

– قلت لك يا صغيرتي، بأنك جئت إلى هنا للبقاء. أنت سجينتنا الآن.

– أرجوك يا«دارت»، أنت توجعني.

– آسف. ترك معصمها، ولكنه لم يبعد نظراته المتحدية عنها.

– في هذه الحالة أحذرك يا«دارت» بأني قد أسبب لك بعض المشاكل.

– أنا أتوقع ذلك يا عزيزتي، لكني أعتقد أن لديّ القوة الكافية لأسيطر على فتاة صغيرة.

– يا إلهي! تجعل الأمر يبدو وكأنه جولة ملاكمة يا«دارت» العزيز.

– ربما يدفعك ذلك إلى التصرف بنعومة ورقّة.

– أشك في أن يحدث هذا، لكني أعرف الآن على الأقل ما عليّ توقعه.

– إذا كنت تودين الدخول في تحدٍّ فقد يفيدك أن تعرفي بأني أستطيع تحطيمك بيد واحدة.

– يا لك من رجل جبّار! وضحكا. فبينهما عادت تلك المداعبات الطفولية. واحتضن «دارت» «كولبي» بحنان قائلا:

– لا أريد استرجاع الذكريات الأليمة، لكني سعيد جدًّا لأن والدك فكر فيّ قبل وفاته، وتركك في عهدتي. «كنغارا» حزنت جدًّا لغيابك عنها. واشتقنا نحن إلى ضحكاتك ووجودك. وابتسمت له «كولبي» برقة:

– عليك أن تبتسمي غالبًا يا صغيرتي. الرجال يفعلون أي شيء لرؤية ابتسامة كهذه.

– بالنسبة إلى رجل يعيش في عالم للرجال فقط. أنت خبير فعلا في إطراء النساء. ونهضت «كولبي» من مقعدها لتنظف المائدة من الصحون المستعملة وفناجين القهوة بعدما انتهيا من تناول العشاء. ترنّحت فجأة وكادت تقع لولا أن أمسك بها «دارت» في اللحظة الأخيرة.

– أنت مرهقة يا صغيرتي. عودي إلى فراشك. ستنامين كالطفلة في هذه الليلة.

– تصبح على خير يا«دارت». وشكرًا لأنك احتضنتني في «كنغارا».

– أنت تحتاجين إلى من يرعاك في هذه الفترة. هيّا اذهبي إلى فراشك. تصبحين على خير. وقبل أن تغلق «كولبي» باب غرفة الطعام وراءها سمعت «دارت» يتمتم:

– أهلا بعودتك يا«كولبي» العزيزة. وكافأته بابتسامة رائعة، لم يرَ «دارت»

بمثل رقتها من قبل.

– شكرًا يا «دارت». وقبل أن تستسلم «كولبي» للنوم، أحسّت للمرة الأولى، منذ انتزعها والدها من أحضان «كنغارا»، بالراحة والاستقرار والأمان. فاستغرقت في نوم عميق دون أحلام.

- 3 -

كان الصباح جميلا ومنعشًا، والسحاب يبدو بعيدًا في الأفق. أفاقت «كولبي» عند أول بصيص ضوء. مدّت يدها، وأدارت الساعة نحوها. كان الوقت قرب الخامسة صباحًا. أزاحت الستارة الرقيقة المحيطة بسريرها ونهضت وهي تشعر بحيوية فائقة كان من المستحيل معها البقاء في الفراش. وضعت رداءها الحريري الأخضر، وتوجهت إلى النافذة لتبعد عنها الشبكة الواقية من البعوض، وتمدّ نظرها إلى المساحات الشاسعة في الخارج. كان العالم يستحم بضوء ذهبي ناعم، ترطبه نسمات منعشة. كم هو رائع هذا الهواء النقيّ! تنشقته بعمق مالئة رئتيها بأريجه القوي. وأطلّ الصباح بكل إشراقته، وطعّمت الشمس الزهور بالذهب، ملقية ظلالا وردية على تلال الرمال المتثائبة.

صقور النهر أخذت تحلّق فوق الوادي فاردة أجنحتها لتلمع كمعدنٍ فضيٍّ في ضوء الصباح الباكر. وإلى الشرق كانت زرقة سلسلة الجبال تمتد طوال الأفق غارقة في السراب، حتى بدت كلوحة رسمتها مخيلة فنان، فأضفت عليها جمالا أبعد من الحقيقة. أما جو الصحراء فلم يكن يماثله أيّ جو آخر. الأشياء كلها تنتصب بوضوح خياليّ، وقطعان الماشية تبدو على مرمى حجر بينما هي في الواقع على بعد أكثر من ثلاثين كيلومترًا. وبينما كانت «كولبي» تتأمل روعة الطبيعة الممتدة أمامها ارتفعت الشمس أكثر في الجهة الشرقية من السماء، ترافقها ريح رقيقة تصفر بعذوبة بين الأعشاب المعطرة، ناثرة حولها البراعم الذهبية.

www.rewity.com

لم تشأ «كولبي» أن تضيع لحظة واحدة من مهرجان الطبيعة التي استيقظت فرحًا بالضوء، فارتدت سروالا من الجلد، وقميصًا حريريًّا أصفر اللون، وما هي إلا خمس دقائق حتى كانت في طريقها إلى النهر الذي شهد العديد من مغامرات طفولتها. أسرعت «كولبي» الخطى وهي تشعر بنفسها خفيفة لدرجة أحست معها بأنها فراشة تطير سعيدة بحريتها. وأخذت تدندن أغنية من أغاني السكان الأصليين تعلمتها في طفولتها. في ذلك الوقت من الصباح كان الهواء لذيذًا منعشًا لكن لن يلبث أن يتفجر حيوية عند الظهيرة، ويمارس خدعًا بصرية على الإنسان المسكين الذي يخضع لإغرائه.

ولم يمضِ وقت طويل حتى قطعت «كولبي» المسافة إلى النهر المتعرّج بين تظاهرة الزهور الملونة وأشجار الصمغ المحلية. وفجأة سقط أمامها الطائر مالك الحزين. وكأنه يستنجد بها من النسر الذي يطارده بوحشية. فصفّقت بيديها عاليًا، لتخيف الطائر الكاسر الذي ابتعد عن فريسته مسرعًا.

كان العالم الأخضر حولها يضجّ بالحياة، فتوقفت لحظة لتتأمل الطيور وهي تحلّق ضاحكة فوق المستنقع القريب، قبل أن تستحم في المياه الضحلة التي عكست عليها الشمس أنوارًا متلألئة. وكانت شفافية محببة من الضياء تتسرّب من خلال ستار النباتات الأخضر؛ لتعانق الأرض المعطرة بالمسك. واحتضنت الطبيعة «كولبي»، وانسابت الظلال الذهبية إلى قلبها تدفئه من آخر قشعريرة تركتها سنوات الغربة في نفسها. وغنت الطيور فرحًا بعودتها وصارت تثرثر بلا تعب أو كلل، بينما تابع النهر ترنيمه فوق الحصى التي شاركته غناءه سعيدة بيقظة الحياة. وللمرة الأولى منذ وفاة والدها، وضعت «كولبي» رأسها بين يديها وبكت. الدموع المنهمرة فوق وجنتيها تساقطت بهدوء لتغسل بقايا الحزن القابعة في أعماقها. واحتوتها الأرض النائية لتغلفها بسحرها البدائي وتمسح دموعها. وأحسّت «كولبي» أخيرًا بالراحة والسلام. كانت الدموع ضرورية.

وفجأة، ودون سبب معيّن، شعرت بأن أحدًا ما يراقبها. أنزلت يديها عن

وجهها، ومسحت دموعها بسرعة، ومرّت دقائق وهي لا تزال في مكانها، وإحساسها يقوى بوجود شخص آخر. وأصغت جيدًا إلى الأصوات حولها، منتظرة سماع نبرة غريبة. ولمحت النباتات على حافة النهر تتحرّك. وتناهى إليها لحن قديم بعمر الأحلام. رفعت «كولبي» رأسها ببطء. على جذع شجرة كبيرة قرب أحد تعرجات النهر، جلس صبي صغير يلعب على آلة موسيقية بدائية. إنه رمز رائع لا يتخطاه الزمن. وتصاعدت الأغنية لحنًا شجيًّا دون كلمات. فرافقتها «كولبي» بصوت خفيض بدأ يعلو بالتدريج ليصدح بأغنية وطنية كانت غالبًا ما ترددها وهي طفلة. وعلى مهل اقترب الصغير منها، ووقف إلى جانبها دون أن يتوقف عن العزف. والتفتت إليه. كان في السابعة من عمره تقريبًا. خصلات شعره الأسود تلتف حلقات غزيرة على رأسه وتنحدر بفوضوية على جبينه. عيناه الداكنتان الواسعتان تذوبان رقة ككل أبناء جنسه. وكان صدره العاري يلمع ببريق نحاسي، فوق سروال كاكي اللون، من النوع الذي يرتديه عمال المزرعة. وتوقفت الموسيقى فرحّبت «كولبي» بالعازف الصغير قائلة:

– أهلا بك يا «أستراليا» الصغيرة. ولم يفهم الطفل قصدها، فتابعت ضاحكة:

– هل أنت آتٍ من المزرعة؟ أجابتها عيناه المعبرتان حتى قبل أن يتفوّه بكلمة واحدة:

– نعم يا آنسة. أنا الساعد الأيمن للسيد الكبير.

– حقًا؟ سألت «كولبي» باهتمام، فلم يبدُ عليه أي انزعاج من نبرتها المداعبة.

– نعم. اسمي «بوكا» وأنا ساعد السيد «دارت» الأيمن.وابتسمت «كولبي» لهذا الكائن الصغير، الذي تحمل طفولته النحاسية كل قدم القارة «الأسترالية»، ولمعت عيناها الخضراوان فرحًا باللقاء.

– كم عمرك يا«بوكا». سبعة... ثمانية أعوام؟

– أكثر من ذلك يا آنسة. وفتح ذراعين واسعتين ليدل بحركة طفولية عن حقيقة عمره. وعندما اطمأن أخيرًا إلى «كولبي» جلس قربها على الصخرة فابتعدت لتفسح له مجالا أكبر.

– المكان رائع هنا. أليس كذلك يا«بوكا»؟ هزّ رأسه إيجابًا. وتسلل شعاع شمس بينهما، منسابًا إلى النهر ليحوله إلى شريط متعرّج من الذهب. فوقهما كانت الطيور تثرثر بصوت عالٍ، وكأن لديها الكثير من الأخبار تود أن ترويها قبل حلول الظلام.

– «بوكا» هل تعرف ما هو اسم تلك الأسماك؟ وأشارت إلى الأسماك الصغيرة الشفافة اللون التي كانت تسبح بين حصى النهر. رفع يده محذرًا:

– هس! لا تتكلمي! سأنادي إحداها لتصعد إلى السطح. وانحنى على النهر، فتقلصت عضلاته تحت بشرته الحريرية. وبطرف أصبعه الصغير صار يرسم دوائر تصغر حلقتها بالتدريج. وفجأة صعدت سمكة إلى السطح بحركة صغيرة سريعة، وكأنها مشتاقة إلى معرفة ما يريده الصبي الصغير منها.

– هذا رائع يا«بوكا». كيف فعلت ذلك؟ ورفعت قبعتها لتنظر إليه ملئًا. والتفت «بوكا» ليبتسم لها، فاتسعت عيناه فجأة وكأنه رأى شيئًا مخيفًا. ووقف في مكانه جامدًا للحظات، قبل أن يفرّ هاربًا.

المفاجأة سمّرت «كولبي» في مكانها، فلم تنطق بكلمة واحدة لتوقف «بوكا» الذي كان يصرخ

– إنها لعنة الشمس. لم تعرف ما أخافه لهذه الدرجة، ولم تجد أي تفسير معقول لتصرفه فللمواطنين الأصليين الكثير من التقاليد الغريبة، وهم يؤمنون بأن الطبيعة تلعن من يجرؤ على تحديها. وشعرت «كولبي» بالأعشاب ترتجف قرب قدميها. فأخفضت بصرها لترى سلحفاة كبيرة تتنزه في اتجاه ضفة النهر وظهرها يلمع بألف لون ولون. واحتوت الطبيعة «كولبي» مجددًا في أحضانها، فنسيت «بوكا» وقصتها معه.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما شرعت «كولبي» تعود إلى المنزل.

وعلى بعد أمتار من البيت الكبير رأت فارسًا مقبلا نحوها. كان «دارت»، حتى وهو منتصب على صهوة جواده، كانت تنبع منه قوة قيادية، يشعر بها العامل معه عن بعد ويطيعها. وقفت «كولبي» في مكانها تتأمل الفارس والحيوان. الجواد يبدو رائعًا، أسود اللون، حريري البريق، ذيله ورأسه يلمعان بلون الفضة. أما الرقبة فطويلة ومعتدة، والقوائم رقيقة وقوية، والكتفان صلبتان. كل ما فيه ينمّ عن أصالة مميزة. توقف «دارت» قربها، ودون أن يتفوه بكلمة انحنى برشاقة ليلتقطها بين ذراعيه ويضعها على الجواد أمامه. وهمس لها ضاحكًا:

– عدت إلى ألاعيبك القديمة. أليس كذلك يا بنت العم؟

– أتعني تسللي المبكر خارج المنزل؟

– نعم. كنت أبحث عنك. لاحظت أنك تركت نافذتك مفتوحة. ألا تستعملين الدرج أبدًا؟ سيكون لي حديث قصير معك يا عزيزتي، بعد الإفطار. عليّ أن أحدّ من بعض أساليب لهوك يا صغيرتي.

– لا يا عزيزي. ليس الآن. كنت بدأت أستمتع بوقتي. ضحك ولم يعلّق على شيء. أخذ يربت ظهر الجواد ليشجعه على صعود التلة الصغيرة.

– كم هو جميل هذا الجواد يا«دارت»! وأخذت تربت رقبته البراقة.

– طبعًا هو رائع. هذا جواد أصيل، ومن سلالة أصيلة.

– أعرف أنك كنت دائمًا تحب كل ما له شخصية مميزة ومستقلة يصعب السيطرة عليها. وصَهَلَ الجواد معتدًا بنفسه، وكأنه يتابع الحديث الدائر بينهما. وضحك «دارت» مبعثرًا بأنفاسه خصلة رقيقة من شعرها تطايرت قرب أنفه.

– ولذا أحب ابنة عمي الصغيرة «كولبي». ورفعت «كولبي» رأسها لتتأمل وجهه الأسمر الجذاب. قبعته العريضة كانت تضفي ظلالا داكنة على عينيه الواسعتين، وتبرز شبح ابتسامة أخذت تتلاعب على زاوية فمه المرسوم بدقة.

– أنت وسيم جدًا يا«دارت». قالتها ببراءة يناقضها بريق الشقاوة في عينيها. واتسعت ابتسامته.

– لا تظني أنك تستطيعين التوصل إلى مبتغاك عن طريق المدح.

– كنت أعرف أني لابدّ من أن أجد الطريقة المثلى للتعامل معك. وكادت تسمع الابتسامة في صوته عندما علّق قائلاً:

– كنت أعتقد أن العكس هو الصحيح. وشد اللجام بين يديه، فأسرع الجواد يشق طريقه بثقة بين تلال الرمل.

– لابد من أن «روشيل» تراك شديد الجاذبية.

– نعم. لكن هذا الأمر لا يعني الفتيات الصغيرات.

– حسنًا. لن أتكلّم في هذا الموضوع بعد الآن. وعادت لتغرق في جمال الصباح، وجسمها يتأرجح مع اختلاجات الجواد الذي كان يسابق الريح. وانتهى الحلم بوصولهما إلى البيت الكبير. ربط «دارت» الحصان في الإسطبل، والتفت ليساعد «كولبي» على النزول.

– إما أنك ازددت وزنًا، أو أني أصبحت أكثر ضعفًا. وتألقت عينا «كولبي» تأثرًا.

– حقًا كانت نزهة ممتعة. نظر إليها «دارت» بحنان.

– لم تتغيّري قط يا بنت عمي العزيزة. مازلت كما الأمس.

– بانفعالاتي ربما. لكني لم أعد طفلة يا«دارت». أصبحت شابة ناضجة.

– لا يزال أمامك بعد طريق طويل للنضج. وانزعجت «كولبي» من الكلمات، لكنها تذكرت فجأة «بوكا» وتصرفه الغريب. كان «دارت» قد انصرف عنها ليتحدث إلى أحد عمال المزرعة. فانتظرت بصبر عودته إليها. وبعد دقائق عاد ليصطحبها إلى المنزل.

– «دارت»، التقيت اليوم قرب النهر أغرب طفل رأيته في حياتي. قال إنه ساعدك الأيمن.

– لابد من أنك تعنين «بوكا». شخصية مميزة فعلا. إنه حفيد «بن».

– خاف مني. لا تسلني لماذا. كنا نتحدث بهدوء. وفجأة فرّ هاربًا كأنه رأى أمرًا مرعبًا.

– غريب. ماذا قلت له؟ هذه القصة تناقض طبيعة «بوكا».

– لم أقل له شيئًا. كنا نتفرّج على سمكة صغيرة. التفت ليبتسم إليّ. وفجأة صرخ بخوف، وفرّ وهو يردد «لعنة الشمس». تأمّلها «دارت» للحظات، قبل أن يرفع قبعتها عن رأسها ليراقب بريق الشمس على خصلاتها النارية.

– أعتقد أني وجدت مفتاح اللغز. أمسك بيدها، وقادها إلى داخل المنزل. توقف برهة في الردهة، وأكمل طريقه إلى غرفة الجلوس، وإلى المرآة الكبيرة في الصدر، حيث ألقت الشمس بكل ثقلها على الإطار الذهبي.

– تعالي يا«كولبي». انظري إلى نفسك في المرآة. واقتربت «كولبي» من المرآة لتحدّق إلى صورتها المنعكسة فيها.

– ما الأمر يا«دارت» لا أرى شيئًا يلفت النظر.

– «بوكا» رآه. وأنا لا ألومه. لون شعرك يلفت النظر في أيّ مكان. أما الصغير «بوكا» فاعتبره نوعًا من السحر خاصًا بالنساء. مررت «كولبي» أصابعها في خصلاتها القصيرة.

– لم أكن لأعرف هذا الأمر وحدي قط.

– كيف تفسرين إذًا مناداتي لك بعصفور الجنة؟

– لأني غريبة الأطوار أحيانًا. وما من أحد يستطيع أن يتوقع ما سأفعله بعد دقيقة.

– هذا مزيج رائع يا صغيرتي. ويبدو أن مزاج «دارت» كان يميل إلى المزاح في تلك اللحظة، لكن «كولبي» لم تكن بالهدوء الكافي لتدخل معه في معركة.

– شكرًا لإطرائك يا«دارت». هذا إذا كان ما قلته إطراء.

– فلنكف عن هذا العبث الآن. هيّا اذهبي الآن لتناول طعام الفطور. وأعد بأني سأجد لك فرسًا ممتازة لنزهاتك اليومية.

– على أن تكون مميّزة الشخصية يا«دارت». لا تنس أني فارسة ممتازة.

www.rewity.com

– وكيف أنسى يا صغيرتي، صرفت ساعات طويلة لتلقينك أصول الفروسية.

– أعلم. لذا يمكنك الوثوق بأني أستطيع السيطرة على الجوهرة السوداء.

وضاقت نظرته منذرة بالغضب:

– الجوهرة السوداء! لا تقتربي منها يا«كولبي». الفرس هذه نارية الطباع، رأيتها في لحظات غضبها تلقي عن ظهرها بستة رجال. فتاة صغيرة مثلك لن تستطيع السيطرة عليها. أمنعك منعًا باتًا من الاقتراب منها.

– لكن يا«دارت»...

– كفى يا«كولبي». لا أريد سماع كلمة أخرى في هذا الموضوع. لا أريد حادثة أخرى في هذه المزرعة. ابتعدي عنها. هل سمعت؟

– نعم. حسنًا يا«دارت». اهدأ قليلا. لا حاجة بك إلى التهديد. رغباتك أوامر. الأمر في غاية البساطة. سأتقبل هزائمي على يديك بنظرة فلسفية.

– آه لو كان ما تقولين صحيحًا! ولم تجبه «كولبي»، بل تركته لتذهب إلى غرفة الطعام. كان «ستيفن» و«سوزان» قد شرعا يتناولان طعام الفطور. بادرها «ستيفن» قائلا:

– صباح الخير يا ذات العينين الخضراوين.

– صباح الخير يا «ستيفن». صباح الخير يا «سوزان». وابتسمت «كولبي» لـ«سوزان» وهي تضع بعض البيض في صحنها. فأجابتها هذه الأخيرة وهي تحاول أن تبدو أكثر رقة:

– استيقظت مبكرة هذا الصباح يا«كولبي».

– يبدو أن الجميع لاحظوا ذلك. «دارت» ألقى عليّ محاضرته الصباحية منذ برهة. ودخل «دارت» الغرفة، وسمع ملاحظتها الأخيرة فعلّق ضاحكًا:

– لم أبدأ بعد يا«كولبي». وتجاهلته «كولبي» متوجهة إلى الاثنين الآخرين.

– هل هو هكذا دائم العنجهية واللامبالاة، السيد المستبد الذي يفرض سيطرته على الجميع؟ وضحك «دارت»، دون أن يظهر عليه أي انزعاج من وصفها

القاسي له. واسترقت النظر إلى وجهه فرأته هادئًا مع لمسة ساخرة تعرفها جيدًا.

– الحمد لله، إني انتهيت تقريبًا من تناول إفطاري. قالتها لتخفي اضطرابها العابر. فعيناه كانتا تخترقانها حتى الأعماق.

– هل تريد فنجانًا من القهوة؟ أومأ «دارت» موافقًا والتفت إلى «ستيفن» الذي كان يراقبهما باستغراب. فإن أحدًا لم يكن يجرؤ على التحدث إلى «دارت» بنبرة الصوت التي خاطبته بها «كولبي».

– «ستيفن». الطبيب البيطري سيأتي إلى المزرعة بعد ظهر اليوم. العجول تحتاج إلى تلقيح. أريدك أن تساعد «ماغاني». علينا أن نجمع حوالي ثماني مائة رأس في مكان واحد. اهتم بهذا الأمر كشاب طيب.

– اعتبر أن الأمر نفذ ما دمت لا تطلب إليّ دمغها بالنار. أكره رؤيتها مستلقية أرضًا تستقبل الحديد الحار دون تذمر لا أستطيع تحمل ذلك.

– سأجعل منك في يوم من الأيام، راعي بقر قديرًا. وانصرف «دارت» لتناول القهوة التي قدمتها له «كولبي»، وهي تسأل:

– هل أستطيع مرافقتكما؟ قطب «دارت» حاجبيه قبل أن يقول:

– سيغطيك الغبار! «سوزان» مثلاً لا تحب ذلك.

– أنا لا يخيفني الغبار. سأغطي شعري بمنديل.

– لا أعرف. سأفكر في الأمر. فقالت ساخرة:

– العمل هو للرجال فقط، أما النساء فعليهن البقاء في المنزل. أليس كذلك يا«دارت»؟

– شيء من هذا القبيل، يا «كولبي» العزيزة. انتهى من تناول القهوة، وغادر الغرفة فلحقت به «كولبي» وقالت بإصرار:

– ما هو القرار يا حضرة الرئيس؟ نظرته جعلتها تشعر بالتردد.

– أنت مصرّة على المجيء معنا أليس كذلك؟ هذا عمل صعب حتى للمتفرجين. إنه عالم للرجال فقط يا«كولبي» الصغيرة.

www.rewity.com

– لماذا لا تتابع قائلا: والحمد لله؟! كانت تعرف بفطرتها الأنثوية كيف تصل إلى مبتغاها بطرق ملتوية.

– حسنًا هذا عالم للرجال فقط والحمد لله.

– إذًا لا يسمح للنساء بدخوله. ونظرت مباشرة إلى عينيه الرماديتين المليئتين رجولة. وبدا عليه التردد.

– نعم غير مسموح. لكني قد أستثني فتاة صغيرة أعرفها لو وعدتني بألا تزعجني، وتتدخّل في أعمالي. فتكتفي بالمراقبة عن بعد. وشكرته بابتسامة بريئة فيها شيء من الانتصار.

– شكرًا يا «دارت». أعدك بالبقاء هادئة.

– حسنًا. نفّذي وعدك وإلاّ... ربما كان تأثير الظلال، لكن «كولبي» رأت على وجهه انطباعًا قاسيًا.

– أعرف أنك تعني ذلك يا «دارت». وشعرت فجأة بأنه يفوقها طولا وقوة. وأمسك معصمها بقسوة.

– أردت أن أحذّرك من نيّاتي يا ذات العينين الخضراوين. وحررت «كولبي» نفسها من قبضته.

– هذا عدل يا «دارت». وقاطعها صوت «ستيفن» الذي لحق بهما إلى الشرفة.

– هل رأت «كولبي» فرسها؟

– لا. لم ترها بعد. تعالي معي إلى الإسطبل يا«كولبي». ولحقت به «كولبي» مشتاقة ووراءها «ستيفن».

– ستعجبك يا«كولبي»، إنها فرس رائعة.

– كفى يا«ستيفن». أفسدت المفاجأة، دع «كولبي» تراها أولا. وفي الطريق التقوا «بوكا». فاستوقفه «دارت» قائلا:

– تعالَ هنا يا «بوكا». أريد التحدث إليك. والتفت «دارت» إلى «كولبي» ومرر أصابعه في خصلاتها الحمراء.

– هذه ابنة عمي يا«بوكا». الفتاة التي أخبرتك بها. أريدك أن تبقى ساهرًا على سلامتها يا مساعدي المفضل. وسجن «دارت» بين أصابعه خصلة من شعر «كولبي»، التي جمدت في مكانها دون حراك، وتابع قائلا:

– والدتها سرّحت شعرها بشعاع شمس. هل تفهم الآن؟

– نعم. سحر النساء. أليس كذلك؟

– شيء من هذا القبيل. اذهب الآن. وابتعد «بوكا» مسرعًا تلاحقه ابتسامة «دارت».

– حسنًا فلنتابع طريقنا الآن إلى الإسطبل. ومشوا بصمت حتى وصلوا إلى هدفهم.

– انتظري هنا يا«كولبي». أمر «دارت»، واختفى داخل الإسطبل، ليخرج منه بعد قليل بفرس رائعة. لم تصدق «كولبي» بصرها. فالفرس البنيّة اللون أمامها كانت جميلة فعلا بعينيها المشتعلتين شررًا، وقوائمها الرقيقة العصبية التي بدت لخفتها كأنها لا تطأ الأرض.

– قولا لي إني لا أحلم! هل حقًا ستعطيني هذه الفرس يا«دارت»؟ انحنى «دارت» برشاقة وهو يقول:

– إنها لك وحدك يا«كولبي». مفاجآت كهذه تجعل الحياة مثيرة. وابتسمت له بحرارة. كانت سعادتها واضحة.

– شكرًا لك يا«دارت». كم أنت طيب! أعتقد أننا سنصبح صديقين.

– يا له من اقتراح مفاجئ!

– أعني ما أقول. ووقفا على جانبي الفرس يربتان ظهرها.

– ما اسمها يا «دارت»؟

– «سورشا» ابنة الشمس. وراقبت «كولبي» انعكاس الشمس على الجسم الطري، الذي تحول لونه البني إلى شعلة ذهبية، وهزت رأسها سرورًا. قال «ستيفن» وهو يستمتع بمراقبة الفرس والفتاة:

– لست محتاجًا إلى أن أسألك عما إذا كانت الفرس قد أعجبتك! كانتا

www.rewity.com

تليقان ببعضهما كلتاهما تنحدر من سلالة أصيلة، وكلتاهما تعتد بنفسها. وشعرت «كولبي» بنظرة «دارت» ترتاح عليها فالتفتت إليه قائلة، بابتسامة طفولية رقيقة:

– شكرًا يا «دارت». سأعاملها كأميرة.

– أعرف يا صغيرتي. ولذا أعطيتك إياها. اذهبي الآن إلى «بيللا». إنها تحتاج إلى المساعدة هذه الأيام.

كان واضحًا أنه يريد صرفها، فابتعدت مبتسمة وهي تلوح له بيدها. وكان آخر ما رأته صورة «دارت» و«ستيفن» يتوجهان معًا إلى مقر رعاة بقر المزرعة. ومرّ ما تبقّى من الصباح بسرعة. أمضت «كولبي» ساعة في فكّ وترتيب حقائبها، ثم نزلت إلى الحديقة لتساعد «بيللا» و«سوزان» في زرع أزهار جديدة. صحيح أن «بيللا» كانت تستعين بعدد من العمال الوطنيين للاعتناء بالحدائق الشاسعة، إلا أنها كانت تصرّ على القيام وحدها بزرع النباتات الطرية، والإشراف على الأعمال الأخرى. وهذا الصباح كانت «بيللا» منهمكة في زرع نوع جديد من البنفسج المداريّ وجدته قرب سفح إحدى تلال الرمل؛ على بعد عدة كيلومترات من المزرعة. حرارة الشمس، وعطر الهواء جعلا «سوزان» تبدو أكثر ودًّا، فمضى الوقت سريعًا، بينما كانت «بيللا» تعطي الفتاتين تعليماتها عن أصول العمل، وكيفية غرس البذور.

وبعد الغداء، ارتدت «كولبي» سروالا مريحًا وقميصًا أحمر اللون، وجلست تنتظر أن يناديها «دارت». ولم تنسَ إخراج منديلها الحريري ذي اللونين الأبيض والأصفر. ففي هذه المنطقة يعلق الغبار الأحمر حتى بالمساحات المصقولة الملساء.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عندما وصل الطبيب البيطري أخيرًا إلى المزرعة. قيل لها إنه سيمضي الليل في «كنغارا». وهامت «كولبي» في أرجاء المنزل دون هدف معيّن. كانت تخشى أن يعود «دارت» عن رأيه ويذهب دونها. سمعت صوته في الحديقة، فوقفت قرب النافذة لتراقبه عن بعد. كان

يتحدث إلى الطبيب البيطري، ورجل آخر لم تَره من قبل. وحاولت «كولبي» أن تنظر إلى ملامح «دارت» بموضوعية لكن الأمر كان مستحيلا. فهو مقرّب جدًّا إلى قلبها، ويستأثر بجزء مهم من عواطفها. وأحسّت تجاهه بمزيج متناقض من المشاعر لم تستطع أن تتبيّن معناها بعد. وابتسمت «كولبي» لنفسها. لم يكن «دارت» يتصرّف فعلا كرعاة البقر أو كأصحاب المواشي. قامته الرشيقة، وأناقته المميّزة، وحركاته العفوية، كانت كلها تشير إلى رجل ينحدر من عائلة أرستقراطية عريقة. وفجأة التفت «دارت» متوجهًا إلى المنزل وهو ينادي باسمها. فطارت «كولبي» إلى الشرفة، وكادت تقع على الدرج وهي تسرع إلى حيث كان ينتظرها. نظر إليها «دارت» بمزيج من الحنان والمداعبة وقال:

– كنت أعلم أنك ستلبين النداء بسرعة، لكني لم أتوقع انقضاضك عليّ كالسهم.

– هل فعلا جئت بهذه السرعة؟ سؤالها كان فيه شيء من التحدّي. وأمام بريق عينيها، والحمرة الخفيفة التي لوّنت خديها، قرر «دارت» الاستسلام حتى قبل دخول المعركة.

– تعرفين «فرانك كيندي» أليس كذلك يا«كولبي»؟ ابتسمت «كولبي» وهي تمدّ يدها مرحبة بالطبيب. لم تنسه. كان غالبًا ما يزور المزرعة في الأيام الغابرة. وبادلها الطبيب ابتسامتها.

– أنا سعيد جدًّا بعودتك إلينا، يا آنسة «إليني»، يا آنسة «كولبي». واسمحي لي بأن أقول لك إن الأيام حوّلتك إلى شابة جميلة فعلا.

– أسمح لك بقول ذلك يا دكتور «فرانك». فقال «دارت»:

– كف عن إطرائها يا«فرانك»، ستدير رأسها، وستصاب بالغرور ولن نتمكن من السيطرة عليها بعد ذلك. والتفت «دارت» إلى الرجل الآخر قائلا:

– «كولبي»، أعرفك إلى «مايك فاراداي» هذا رجل لكلّ المهام ولكلّ الفصول. أطالت «كولبي» النظر إلى الرجل الواقف أمامها، فرأته طويل القامة، متناسق

www.rewity.com

التقاطيع، فاتح الشعر يقارب عمره سن «دارت» أي أنه يبدو في أوائل الثلاثينيات. واستراحت عيناه البنيتان على «كولبي» بتعبير فيه الكثير من الاهتمام.

– أنا سعيد بمعرفتك يا آنسة «كينغ». «دارت» كلمني كثيرًا عنك. وكان لصوته رنة خفيفة وعذبة. والتفتت «كولبي» إلى «دارت» فوجدته ابتعد عنها ليفتح باب السيارة الكبيرة المتوقفة على بعد أمتار قليلة.

– هيّا يا«كولبي». اصعدي. حان وقت الذهاب. جلس الرجلان في المقعد الخلفي، واستراحت «كولبي» قرب «دارت» الذي انطلق بالسيارة مسرعًا صوب حظائر الماشية. وعند وصولهم كان رعاة البقر يأتون بالقطعان إلى الأماكن المسيّجة التي أنشئت خصوصًا لجمعها، وكان العمال قد أمضوا يومين كاملين يجوبون أراضي «كينغ» الشاسعة بحثًا عن القطعان، لفصل الحيوانات المحتاجة إلى تطعيم ودمغ. كان هناك حوالي ثلاثة آلاف رأس من الماشية مجتمعة في الحظيرة المؤقتة تتراوح أعمارها ما بين يوم وشهر واحد، وكلها برفقة أمهاتها. وغطّت هالة من الغبار الأحمر المكان. الرجال كانوا يرتدون ثياب رعاة البقر التقليدية، وهي تشابه كثيرًا أزياء رعاة بقر ولاية «تكساس» الأمريكية: قبعة عريضة تقي عيونهم من حدة الشمس، وسروال جلدي ضيق، ومنديل حول العنق، وحذاء عالٍ من جلد العجل، وقميص مزين بمربعات فاتحة اللون، وحزام عريض من الجلد. وفي المناسبات الخاصة كان الرجال يستبدلون بالقميص فقط آخر من الحرير المطرّز برسوم زاهية.

في القرى كان الرجال يبدون أكثر طولا، ورشاقة، وأعرض أكتافًا من زملائهم في المدن، وكذلك تبدو وجوههم أكثر رجولة وقوة... ورأت «كولبي» حوالي أربعة عشر رجلا من رعاة البقر يتحلقون حول الحظائر، للسيطرة على المواشي التي بدأت تظهر عصبيتها. أوقف «دارت» السيارة. فخرج منها أولا «مايك» والطبيب، واتجها إلى الحظيرة الأولى. ربطت «كولبي» المنديل حول رأسها وهمت باللحاق بهما، فأوقفها «دارت».

– مهلا يا ذات الخصلات النارية. حقًا أنت أنثى عنيدة. قلت لك إني أسمح لك بمشاهدة ما يحدث عن بعد.

– أين تريدني أن أقف بالتحديد؟ ورسم «دارت» بيده خطًا وهميًا.

– قرب السيارة. لا تقتربي أكثر من ذلك. بعض الثيران في القطيع قد تكون خطرة. هل من أسئلة أخرى؟

– لا يا«دارت».

– حسنًا. وابتعد عنها ليتحدّث إلى الرجال، فاختارت «كولبي» مكانًا ظليلا تقف تحته. الحرّ اشتدت وطأته. خلعت قبعتها ووضعت نظارة داكنة على عينيها. الشمس بدت أكثر احتراقًا في السماء الصافية، والتلال انتصبت بقساوة أكثر طوال خطّ الأفق، أما الغبار فتراكم كثيفًا على كلّ الوجوه.

على بعد أمتار قليلة منها، رأت «كولبي» «ستيفن» بقميصه الأزرق الفاتح، يتحدث إلى أحد الشبان الأصليين. عرفته على الرغم من المنديل الذي غطى نصف وجهه لحماية رئتيه من تنشق الغبار الخانق. وبدأ عمال المزرعة بطرح العجول أرضًا لدمغها بحرف «ك». وسكنت فجأة همهمة القطيع، وكأنه شعر بتهديد الحديد الساخن الذي سينهال بعد لحظات على جلده. وكانت «كولبي» تشارك «ستيفن» نفوره من هذا الإجراء الضروري لحصر رؤوس الماشية الخاصة بمقاطعة «كينغ». فأبعدت نظرها عن القضبان المشتعلة التي تضع دوائر صغيرة على العجول الخائفة؛ لتراقب الطبيب المنهمك في تطعيم الحيوانات الأخرى التي عرفت طعم النار قبل سنوات، وراحت تنظر بحنان إلى صغارها. بعد ساعة من العمل الشاق، التف الرجال على نداء طباخ المزرعة، وهو صينيّ من مقاطعة «كانتون». كان طاهيًا ماهرًا، والمسؤول عن تأمين المؤونة الغذائية للبيت الكبير ومقرّ العمال. جلس على جذع شجرة كبيرة، وعلى وجهه المرح الصغير ابتسامة مميزة لا يراها المرء إلا على وجوه الشرقيين. وتذكرت «كولبي» كم كانت تستمتع برفقته المسلية وهي طفلة. كان صديقًا لكل أطفال المزرعة. ومشت «كولبي» إليه وهي تحاول أن تتجنب غيوم

وارتجفت شفتاها تأثرًا.

– آسفة يا«دارت». الحق عليّ فيما جرى.

– أعرف يا عزيزتي. هذا يؤكد لي أن النازيات الشعر لا يختلفن فعلا عن غيرهن. بل ربما كنّ أيضًا أكثر تسببًا للمشاكل. وجالت عيناه في وجهها الطفولي، واستقرتا أخيرًا على فمها الحزين الذي فقد آخر أثر للمرح والشقاوة.

رفعت «كولبي» باضطراب خصلات الشعر المتهدلة على جبينها:

– هل تتألم يا«دارت»؟ لن أسامح نفسي أبدًا على ما حدث؟ ونمت عنه صرخة ألم وتقلصت كتفاه، فكادت «كولبي» تبكي خوفًا عليه، وهزّ الطبيب رأسه مؤنبًا «دارت».

– لا تخافي يا آنسة «كولبي». «دارت» يمزح معك. رجل بصلابته يحتاج إلى أكثر من قرن ثور ليبقى في الفراش. لا تخشي شيئًا سيتعافى بسرعة.

– لكنه ينزف بشدة يا دكتور. «دارت» أرجوك قل لي شيئًا! أي شيء.

– ما بك! هل تعتقدين أني سأموت قريبًا؟ لن تفلتي مني بهذه السهولة ياعزيزتي. وعادت ابتسامة المداعبة تتراقص على شفتيه. تنفست «كولبي» بعمق وارتمت أرضًا بجانبه، فاحتواها بذراعه القوية، وشدها قريبًا من صدره.

– اهدئي يا صغيرتي. كل شيء سيكون على ما يرام. وتركها تستريح قربه بضع دقائق ثم أبعدها عنه بحزم.

– هيّا اذهبي الآن. لا تستفزي حظك أكثر من ذلك. «مايك» سيعيدك إلى المنزل.

– أعتقد أنه من غير المجدي أن أقترح عليك العودة معي، لتنظيف الجرح.

– لا سأبقى هنا. «فرانك» سيعتني بي. ولاحظ «دارت» للمرة الأولى، الدموع الحبيسة في عينيها، والتي تحاول «كولبي» جاهدة منعها من السقوط.

– كنت أعتقد أن أفراد عائلة «كينغ» يستطيعون السيطرة على انفعالاتهم أكثر من ذلك.

– ربما كنت استثناء للقاعدة.

– لا يا عزيزتي. كنت دائمًا مميزة الشخصية. وأعتقد أني مجبر على تقبلك كما أنت. استرقت «كولبي» نظرة إلى وجهه، فلم تستطع أن تتبين ملامحه تحت القبعة العريضة.

– كل ما أستطيع قوله، يا«دارت»، هو أني آسفة.

– حسنًا، على الأقل تعترفين بخطئك. وقاطعهما صوت «مايك فاراداي» قائلا:

– أنا بانتظارك يا آنسة «كينغ».

– شكرًا يا سيّد «فاراداي». ونهض «دارت» من مكانه ليرافقها إلى السيارة. وما إن استقرّت «كولبي» في مقعدها حتى صفق وراءها باب السيارة بعنف.

– اذهب بها الآن يا «مايك». قالها بقسوة، وانصرف عنهما مسرعًا. أغمضت «كولبي» عينيها وساد الصمت بضع دقائق قبل أن يقطعه «مايك» قائلا:

– لا تدعي الحادث يؤثر فيك يا آنسة «كينغ». كان من الممكن أن يحصل الشيء ذاته لأيّ فرد آخر.

– لكنه لم يحدث لأيّ فرد آخر. عمي «سيروس» كان يقول دائمًا: النساء هن الديناميت المفجر لكل سوء يحصل.

– هذا تهرّب من الحقيقة. واسترق «مايك» نظرة سريعة إليها، وعاد ليحدق إلى الطريق الممتدة أمامه. ابنة عم «دارت»، لم تكن كما تصورها. كان يتوقع فتاة طويلة القامة عادية الجمال، لا هذه الأنثى الرقيقة الجسم، الجذابة الملامح، النارية الشعر.

– كم أتمنى لو لم يحدث ما جرى! لم تستطع «كولبي» إبعاد ذهنها عن الموضوع. فنظر إليها «مايك» بجدية قائلا:

– انسي الأمر يا«كولبي»... هل تسمحين لي بأن أدعوك باسمك الأول؟ بفمك الصغير المرتجف، لا تبدين ناضجة بما فيه الكفاية لحمل لقب الآنسة «كينغ». وسيطرت «كولبي» فورًا على ارتجاف فمها، ورفعت كتفيها باعتداد

www.rewity.com

قائلة:

– أعتقد أنك ستكتشف أني أستطيع أن أكون الآنسة «كينغ» عندما تتطلّب الظروف ذلك. قالتها بتعالٍ، وضحكت للنظرة الحائرة في عينيه. كان العشاء مرحًا رغم إصابة «دارت». وشاركهم فيه الطبيب البيطري و«مايك فاراداي». انهمكت «كولبي» في مراقبة الوجوه الستة.

«سوزان» كانت منشغلة بما يقوله لها «مايك فاراداي»، بينما كان «دارت» والطبيب يتحدثان عن شؤون المزرعة، وتشاركهما «بيللا» بين حين وآخر بتعليق يدل على سعة اطلاعها وخبرتها في هذا المجال. أما «ستيفن» فكان يستمتع بطعامه بحماس الفتى الذي لا هم له إلاّ أن يكبر. والتفت «ستيفن» إليها فجأة.

– هل اشتقت إليّ اليوم؟

– في اللحظة التي هجم عليّ الثور تساءلت عما كنت ستفعله أنت لو كنت في مكاني؟

– لابد من أني كنت سأصاب بالإغماء. وضحكا عاليًا. وشعرت «كولبي» بنظرة «دارت» تستريح عليها. كم يبدو وسيمًا هذا المساء! حادث بعد الظهر لم يترك أيّ أثر فيه. ودون سبب واضح عضت «كولبي» على شفتها السفلى. ما بها؟ لمَ الاضطراب؟ وكأن «دارت» أحسّ بالصراع الدائر في أعماقها فأبعد عينيه عنها مبتسمًا، ليصغي إلى حديث العمة «بيللا». وأخذت «كولبي» ترسم بإصبعها دوائر وهمية على مفرش الطاولة وهي لا تفهم سرّ تسارع نبضات قلبها. طبيعتها البريئة المتفتحة على الحياة، طرأ عليها تغيير مفاجئ تلمسه من خلال الأحاسيس المتناقضة المتفاعلة في أعماقها. وأحسّت بالخوف منه وأيضًا من نفسها، فهي لا تريد الغوص إلى أعماق هذه العلاقة الجديدة التي تدفعها بعيدًا عن عالم طفولتها. إنها واثقة بأمر واحد فقط، وهو أن «دارت» يريدها ابنة عمّ رقيقة، وناعمة، لا تسبب له أية مشكلة. وفي الأشهر السبعة المتبقية من وصايته عليها، ستحرص «كولبي» على البقاء كما يريدها.

– أحذرك أني لن أسمح لك بتجاهلي إلى هذه الدرجة! كان «ستيفن» يحاول جاهدًا لفت انتباهها.

– ما بك؟ كنت تبدين وكأنك منهمكة في حل مشاكل العالم كله.

– ربما كنت أفعل ذلك فعلا. في الحقيقة كنت أتساءل عما يجب عليّ تناوله مع الحلوى. وضحكت «كولبي» فانفرجت أسارير «ستيفن». ضحكتها الخفيضة كانت تضج أنوثة وحيوية. فهمس لها:

– «كولبي»، ما رأيك في الفكرة التي سأطرحها عليك؟

– فلنسمعها كلنا يا«ستيفن». والتفتت الوجوه كلها إلى «دارت» الذي نطق بكلماته الأخيرة في نبرة جافة جعلت «ستيفن» يسرع بالإجابة.

– كنت سأقترح عليها افتتاح حلبة الرقص. وغرّدت «كولبي» ضاحكة:

– يا لها من فكرة رائعة يا«ستيفن»! أعتقد أني سأستمتع بالرقص لو وجدت فعلا الرفيق المناسب.

– لن تتفوقي عليّ يا صغيرتي. والتفت «ستيفن» إلى شقيقته و«مايك فاراداي».

– وماذا عنكما؟ نهض «مايك» من مقعده ليساعد «سوزان» على الوقوف مبعدًا بتهذيب كرسيها عن الطاولة ثم قال:

– هيّا اسبقني يا«ستيفن». ضع الموسيقى المناسبة وسألحق بك. وغمزت «كولبي» «سوزان» قائلة:

– الإقبال كبير علينا اليوم. هل تعتقدين أن السبب يعود إلى النقص في عدد النساء؟

– لا يهمني السبب. سأستغل الظرف الحالي. وللمرّة الأولى ترى «كولبي» عيني «سوزان» تتألقان فرحًا، وشفتيها تتسعان في ابتسامة عريضة مشرقة. وأسرعت «سوزان» وراء شقيقها «ستيفن»، ليغرقا بعد لحظات في مناقشة حادة حول الألحان الصالحة للرقص. أما «كولبي» فتبعت «دارت». وقالت له:

– عزيزي «دارت»، آمل ألاّ تكون قد تضايقت من الفكرة.

– لا يا طفلتي العزيزة، افعلي ما يحلو لك طالما كانت أفعالك في حدود

المعقول. ابتسامته المداعبة دلّت بوضوح على أنه يريد مداعبتها. فغيّرت مجرى الحديث.

– كيف تشعر الآن؟ وعرفت «كولبي» أن الجواب لن يكون فيه أيّ أثر للجدية.

– كيف تريننني؟

– تبدو أكثر إنسانية. وتعلّقت عيناها بوجهه الرجولي، تبحثان عن سبب التغيّر الذي طرأ على علاقتهما. هذا الإحساس الجديد بالاضطراب والتوتر لم تكن تعرفه من قبل. وساد صمت ثقيل بينهما، تابع فيه «دارت» مراقبة «كولبي» عن كثب، فانتفضت ساخرة.

– ما بك؟ ألا تعجبك الفتيات الحمراوات الشعر؟

– أنا معجب بك أنت وحدك. كلماته خلت من السخرية كان يتكلم بحنان.

– ماذا حدث لنا يا«دارت»؟

– أنا لم أتغير لكني أعتقد أنك تكبرين.

– تقصد أن تقول إنك كبرت؟

– هل تعتقدين ذلك؟ لم تستطع «كولبي» أن تتحمّل سخريته منها هذه المرة، فابتعدت عنه غاضبة. ترنّ وراءها ضحكته الهازئة. تبًا لك يا«دارت»! يتعامل معها وكأنه السيد المطاع. كيف لم تلاحظ ذلك من قبل؟ وارتاحت أسارير «مايك فاراداي» وهو يراها مقبلة نحوه. كم هي رشيقة. ورقيقة. وأنثى! «روشيل» ستكرهها من النظرة الأولى. هذه المرأة لن تتنازل عن «دارت» لأيّ امرأة. فهي من النوع الذي لا يسمح لأيٍّ كان، بالتدخل في مشاريعه. و«دارتلاند كينغ» كان من أحد مشاريعها ومعه كل الأراضي التابعة للعائلة.

– تبدين رائعة يا آنسة «كينغ».

– شكرًا يا سيد «فاراداي». الإطراء موسيقى ناعمة تحب سماعها أي امرأة... على الرغم من أني فهمت منذ قليل أني ما زلت في طور الطفولة. استرق

«مايك» نظرة من فوق رأسها إلى «دارت»، وعلّق ضاحكًا:

– أعتقد أن المرأة لا تصبح امرأة فعلا إلا لدى إنجاب طفلها الأول.

– أشك في ذلك يا سيّد «مايك». بعض أقرب الصديقات إليّ عوانس. لكني لاأشك في أنوثتهن لحظة واحدة!

– فلندع الحديث جانبًا. هل تسمحين لي بهذه الرقصة؟ كان «ستيفن» و«سوزان» يرقصان وسط الغرفة دون حماس. وباقتراب «كولبي» و«مايك» منهما صرخ «ستيفن» باحتجاج، مشيرًا إلى شقيقته:

– لا يمكن أن يستمرّ الوضع على هذا الحال. أريد أن أغيّر شريكتي. «مايك»، دع «كولبي» لي، وارقص أنت مع «سوزان». وحاول «مايك» أن يخفي انزعاجه. فـ«سوزان» تمرّ بعمر صعب، وما لم يكن مخطئًا، يبدو أنها بدأت تتعلق به عاطفيًا. ولم يكن «مايك» مخطئًا. أشرق وجه «سوزان» حين لامستها ذراعاه، ولمعت عيناها فرحًا. لاحظت «كولبي» التغير الذي طرأ على ملامح «سوزان».

– الحب لعبة قاسية يا«ستيفن».

– ما سبب هذه الملاحظة الآن؟

– «سوزان»، ربما. لا أودّ أن أكون حشرية لكن هل هي...

– لا أعتقد. أو على الأقل ليس في المرحلة الحالية. «مايك» يمشي على خطى «دارت»، أقصد أنه أيضًا عازب لا يمكن الإيقاع به بسهولة، وإقناعه بالزواج. أنا لم ألتق حتى الآن برجل لديه قدرة الاكتفاء بالذات كالتي يملكها «دارت». انظري كيف صمد أمام كل محاولات «روشيل» التي استخدمت حتى الآن كل خدعها الأنثوية للإيقاع به.

– لا تكن قاسيًا يا«ستيفن». لا يمكن أن تكون «روشيل» بهذا السوء.

– احكمي بنفسك. لكني أخاف أن تنشب أظافرها في وجهك. فأنت رقيقة، وناعمة، و...

– لا تستعمل أساليبك الملتوية معي يا«ستيفن». أنا محصّنة ضد الرجال، على

www.rewity.com

الأقل لخمسة أعوام مقبلة.

– لا أصدق كلمة واحدة مما تقولين. فتاة جميلة مثلك لابدّ من أن تتزوج قريبًا.

ورنت أصداء كلماته الأخيرة في الغرفة، مع انتهاء لحن الأغنية. فسمعها «دارت» واقترب منهما.

– من هي التي ستتزوج قريبًا؟ هل تخفي علينا «كولبي» شيئًا ما يا«ستيفن»؟

– لا. كانت تقول إنها لن تفكر في الزواج قبل خمس سنوات على الأقل.

– وفقط إذا وجدت الشخص المناسب. لا تنس أنها لن تستطيع الزواج إلا بموافقتي. فأنا سأبقى وصيًا عليها لأكثر من أربعة أعوام. ودون سبب محدد شعرت «كولبي» بسعادة غامرة. وفتحت ذراعيها لابن عمها تداعبه قائلة:

– هل تجد في نفسك القوة الكافية للرقص؟ ولم تتوقع أن يستجيب «دارت» لندائها. جرحه وحده كان كافيًا لمنعه من الحركة. لكنه أطفأ سيجارته، نافخًا دخانها الرمادي في الهواء، وتوجه إلى «كولبي»، ليحتضنها بين ذراعيه، فيميلان معًا على إيقاع الموسيقى. وقاد «دارت» خطوات «كولبي» برشاقة وليونة في الحركة. فتبعته طائعة وهي غارقة في ظلّ رجولته. وللمرّة الثالثة في تلك الأمسية تشعر «كولبي» بالتوتر والاضطراب دون سبب معين. تمتم «دارت» برقة وهو يشد قبضته عليها:

– أنت لست بالجودة التي كنت تدعين قبل قليل! فابتعدت عنه. لم تتحمل كرامتها مزيدًا من السخرية.

– أعتقد أن طولك الفارع هو السبب يا«دارت». ولم يرد عليها بل التفت إلى «بيللا» ليرفعها عن مقعدها قبل أن تدرك ماذا يحدث؟

– يا إلهي! يا«دارت»، أنا لم أرقص منذ زمن طويل. وضاع احتجاجها في صخب الموسيقى، وتصفيق «سوزان» و«ستيفن» اللذين وقفا قربها يشجعانها على الرقص. ومرّت السهرة في جوّ من المرح والانطلاق. وعندما خفتت الألحان لاحظت «كولبي» لمحة ألم عابرة على وجه «دارت» فعلّقت قائلة بسخرية:

– أنت لست بالقوة التي كنت تدعي قبل قليل.

- 4 -

ما كاد يمر يومان على عودتها من إحدى زياراتها الموسمية إلى العاصمة، حتى كانت «روشيل تينانت» تدق باب «كنغارا». لم تأتِ لتفقد أصدقائها كما قالت، بل لتلقي نظرة على الآتية الجديدة. وكعادتها وصلت «روشيل» في وقت لم يكن أحد ليتوقع حضورها، أي قبل موعد الغداء بقليل. «كولبي» لم تكن في المنزل. كانت تتجول و«بوكا» في أحضان الطبيعة، تأسرها رواياته عن أسرار النباتات والأرض والكائنات التي ترتبط بتقاليده ومعتقداته البدائية.

وقفت «كولبي» باحترام قرب «بوكا» الذي اختار بقعة محددة من الأرض أخذ يضربها بعصاه ليبرهن لـ«كولبي» على أنه قادر على إيجاد الماء حيث يعجز الرجل الأبيض عن ذلك. لم تسمع الشابة أي صدى للعصا في الأحجار الرملية. وعند الضربة الرابعة تفتت قسم من الحجر فتفجرت من تحته مياه حلوة نقية. مدّ «بوكا» يديه وأخذ يشرب من المنهل العذب. أما «كولبي» فراحت ترطب بالرذاذ المنعش وجهها الذي لوحته حرارة الشمس. ثم قام «بوكا» بإخفاء المكان السري الذي اكتشفه وتركه تحت حماية الثعبان الكبير رمز المحاربين في قبيلة «الكنغارا». فهذه المياه سرية ومقدسة ورثها عن أجداده. ودلّ وجه «كولبي» المنحني بجدية على أنها تقدّر الشرف العظيم الممنوح لها. ومرّت ساعة أخرى قبل عودتها إلى المنزل الكبير. توقف «بوكا» في الحديقة ليلهو قليلا بسطل المياه يداعب به الزهور الملونة المتعطشة للمرح. وراقبته «كولبي» فترة قبل أن تقول له إنها ذاهبة لتناول طعام الغداء. والتفت إليها مودعًا، ناسيًا السطل في يده، فغرقت «كولبي» تحت سيل من المياه المتدفقة. ضحكت عاليًا والماء يتساقط من شعرها وفستانها. وحاولت «كولبي» أن تتسلل إلى المنزل من الدرج الخلفي، فلا يراها أحد وهي في هذا الوضع.

لكن «بيللا» فاجأتها في اللحظة الأخيرة. قائلة:

– يا إلهي! ما بك يا«كولبي»، هل سقطت في النهر؟

– لا. كنت ألهو و«بوكا». فأغرقني في الماء دون انتباه.

– يا له من قرد صغير! انحنت «بيللا» على الشرفة وصفقت منادية «بوكا». فاسترق إليها نظرة واحدة وفر هاربًا خوفًا من العقاب.

– أرجوك يا عمتي «بيللا». لم يقصد «بوكا»... وتوقفت عن الكلام عندما رأت «سوزان» التي خرجت من المنزل برفقة فتاة في منتصف العشرينيات، أخذت تنظر إلى «كولبي» بكثير من السخرية. ترددت «بيللا» برهة. هل هذا هو الوقت المناسب فعلا لتقديم الفتاتين إلى بعضهما؟ «كولبي» تبدو كطفلة عابثة بفستانها المبلل، وبقطرات المياه التي تتساقط على جبينها وأنفها من المنديل الذي ربطت به رأسها على غرار القراصنة. بدت «سوزان» مستاءة فعلا من مظهر «كولبي».

– «كولبي». يا إلهي ماذا فعلت بنفسك؟ «روشيل» جاءت لزيارتنا.

– أهلا بها. آسفة. هل لي بدقائق قليلة أذهب فيها لأمسح هذه الشلالات الصغيرة عن وجهي... لن أتأخر. وركضت إلى غرفتها وهي تسمع صوت «روشيل» يرن وراءها ساخرًا:

– هذه هي إذًا ابنة عم «دارت». وبعد دقائق عادت «كولبي» إلى غرفة الجلوس، فتاة مختلفة تمامًا. فستانها الأخضر الزاهي جعلها تبدو كزهرة صحراوية برية. كانت «روشيل» تروي طرفة لجمهورها المتجاوب، لكنها توقفت فجأة عند دخول «كولبي» لتعلق ضاحكة:

– لم أعرف أنك حمراء الشعر.

– أنت «روشيل» طبعًا. أنا سعيدة لمعرفتك.

– أخبريني يا آنسة «كينغ» بالسبب الذي دفع بك إلى اجتياز كل هذه المسافات؟ لابد من أنك ستجدين المكان مملاً بشكل مخيف! ستشتاقين إلى أضواء المدينة ووسائل اللهو المتوفرة هناك. ابتسمت لها «كولبي» ببراءة

مصطنعة. وهي تجيبها مداعبة:

– أعتقد أني سأجد رجالا أكثر هنا يا«روشيل»! أرجوك ناديني بـ«كولبي»، الجميع يفعلون ذلك.

– أنت فتاة صريحة جدًا. أليس كذلك؟ لكن لم تجيبي عن سؤالي بعد. وهبّت «بيللا» لمساعدة «كولبي». ضايقها أن تخاطبها «روشيل» بهذا الأسلوب.

– هذا كان بيت «كولبي»، وسيبقى ما دامت ترغب في ذلك. بعض فتياتنا تجذبهن أضواء المدينة لفترة، لكنهن يعدن دائمًا إلى الجذور. فلهذه المنطقة النائية سحر خاص بها، يأسر كل الذين عاشوا فيها. وسواء أحبها المرء أم كرهها، فلا بدّ من أن يعود إليها. وتأثرت «كولبي» من محاولة «بيللا» ترطيب الأجواء، وتساءلت عن السبب الذي جعل «سوزان» تتعلق إلى هذه الدرجة بصديقتها «روشيل». لقد شعرت بغريزتها الأنثوية، بأن هذا النوع من النساء لن يكون أبدًا صادقًا مع واحدة من بنات جنسه.

كانت «روشيل» تتمتع بجمال أخّاذ. شعرها الأسود المتموج الخصلات سرحته بعيدًا عن جبينها عند أعلى رأسها بعقدة أنيقة. بشرتها الصافية كانت تميل إلى سمرة برنزية، وفي حركاتها اللامبالية رشاقة كسولة. أما عيناها الداكنتان بفتحتيهما الضيقتين فتلمعان ببريق ساخر. كانت «روشيل» تتكلم بشيء من التعالي وإلى جانبها «سوزان» مأخوذة بما تقوله صديقتها، وهي بادية السعادة بالزائرة الجديدة.

– «سوزان». هل لك يا عزيزتي أن تجلبي كوبا من الشراب البارد؟ فإن حلقي جفّ من طول الطريق. كان صوت «روشيل» آمرًا، فأطاعت «سوزان» بسرعة. ووجدت «كولبي» نفسها تنظر إلى «بيللا» بتساؤل. فابتسمت قائلة:

– «روشيل» ستبقى معنا ليومين أو أكثر. وهكذا يتسنى لكما الوقت لمعرفة بعضكما أفضل. ربما يستطيع «دارت» أن يرتب نزهة إلى أقصى البلاد. هذا إذا لم يكن مشغولا. وعادت «سوزان» إلى الغرفة تحمل صينية عليها ثلاثة أكواب من الشراب المثلج. فرفعت «بيللا» حاجبيها:

www.rewity.com

– وأنا أيضًا أريد كوبًا من الشراب يا«سوزان»! وتلعثمت «سوزان» وهي تقول باضطراب:

– لكن يا أمي...

– شكرًا لك يا عزيزتي. تضايقت «بيللا» من قلة ذوق ابنتها. ستتكلم معها لاحقًا في هذا الشأن. ونقلت «روشيل» اهتمامها إلى «كولبي».

– علينا أن نعمل على جعل إقامتك ممتعة بيننا. على أية حال سبعة أشهر تمر بسرعة، أتصوّر أنك تريدين الاستقلال الذاتي في أسرع وقت ممكن. دعي الأمر لي سأكلم «دارتلاند». كادت «كولبي» تضحك لكنها تمكنت من السيطرة على نفسها. «دارتلاند»! لم تسمع أحدًا من قبل يناديه بهذا الاسم، حتى والدته. خرجت «بيللا» من الغرفة لتداري انزعاجها من تصرفات «روشيل». قالت إنها ذاهبة لتشرف على اللمسات النهائية لطعام الغداء. أغلقت الباب وراءها وهي تسمع «روشيل» تقول لابنتها «سوزان»:

– عزيزتي «سوزان»، عليك أن تفعلي شيئًا بشأن بشرتك؟ وتلمست «سوزان» وجهها وهي تصغي باهتمام إلى «روشيل» تصف لها بعض العلاجات الخاصة بالبشرة الجافة. ولم تتحمل «كولبي» مزيدًا من ذلك. نهضت من مقعدها، اعتذرت إلى الفتاتين وخرجت إلى الشرفة.

مرت ساعات بعد الظهر ثقيلة على قلب «كولبي». فغالبًا ما كانت تشعر بعيني «روشيل» الناقدتين تحدقان إليها. «سوزان» على الأقل كانت تستمتع بوقتها، غير مهتمة بالملاحظات المضحكة التي كانت تقوم بها صديقتها على حسابها. كانت منهمكة في تقليب صفحات مجلات الأزياء الأمريكية والبريطانية التي أحضرتها «روشيل» معها. وحاولت «كولبي» جهدها إيجاد قاسم مشترك للحوار بينها وبين هذه الفتاة التي تتصرف كصديقة حميمة للعائلة، لكنها وجدت الأمر صعبًا. فـ«روشيل» فتاة جافة باردة ينقصها الكثير من الصدق والصراحة والدفء. ولذا ظل الحديث بينهما سطحيًا يتناول مواضيع عامة. وعاد الرجال بعد مغيب الشمس، فصار الجو أكثر مرحًا. دخل

«دارت» إلى غرفة الجلوس تحيط به هالة من الحيوية تميز عادة الرجال الذين يمضون معظم أوقاتهم في الهواء الطلق. عيناه الرماديتان تألقتا ببريق فضي تحت الأضواء الخافتة. وتوجه «دارت» مباشرة إلى «روشيل» التي أحنت قامتها بدلال ورسمت على فمها القرمزي ابتسامة رائعة.

– «دارتلاند» كم هو رائع أن أراك مرة ثانية!

– أنت ضيفة خاصة جدًا في «كنغارا» يا«روشيل». وابتسم لها وهو يلقي بيده بتكاسل على كتف «كولبي» التي لم ترَ في جملته الأخيرة أي شيء يبرر حمرة الخجل التي لونت وجه «روشيل».

– لماذا كنت تخفي عنا يا«دارت» ابنة عمك «كولبي»؟ يا لها من طفلة جميلة ورقيقة! وصرخت «كولبي» بحدة:

– طفلة... دخل «ستيفن» الغرفة وقبّل رأس والدته سائلا:

– من هي الطفلة الجميلة الرقيقة؟

– أنا يا«ستيفن». أو على الأقل «روشيل» ترى ذلك. ردَّ «كولبي» جاء ساخرًا، فالتفت «ستيفن» إلى «روشيل» وقال:

– لا أوافقك رأيك يا آنسة «تينانت»، «كولبي» تبدو أكثر كأميرة حالمة لا نراها إلا في كتب الأساطير. طبعًا رأيي غير مهم. فأنا أيضًا صبي صغير. أجابته «روشيل» برقة مصطنعة قائلة:

– ربما. فابتسم «ستيفن» لـ«كولبي»، وقال:

– كيف وجدت الآنسة «تينانت» الجذّابة؟ جاءت لتلقي شعاعًا من الدفء والسعادة في حياتنا الحزينة. وردّت «روشيل» وهي تحاول السيطرة على غضبها:

– شيء من هذا القبيل يا«ستيفن». وتدخل «دارت» ليرطب الأجواء المتوترة.

– كفّوا جميعًا عن هذا المزاح. ونهضت «بيللا» من مكانها:

– سأذهب لأتأكد أن العشاء أصبح جاهزًا... «ستيفن»، اذهب واسأل «مايك» عما إذا كان يرغب في الانضمام إلينا. قل له إن «روشيل» هنا. وخرجت

«بيللا» من الغرفة ووراءها «ستيفن» و«سوزان». ووضعت «روشيل» بين شفتيها السيجارة التي قدمها إليها «دارت»، وأحنت رأسها في اتجاهه ليشعلها لها.

– كنت أقول لـ«كولبي» إننا سنفعل كل ما في وسعنا لجعل إقامتها ممتعة بيننا. لا نريدها أن تمل أليس كذلك؟ نفث «دارت» سيجارته في حلقات رمادية تصاعدت في الهواء، والتفت إلى «كولبي» مبتسمًا.

– هل تعتقدين أنك ستشعرين بالملل هنا يا«كولبي»؟

– في بعض المناسبات فقط وأرجو ألا تطول! فعلقت «روشيل» بضحكة مصطنعة.

– يا لك من طفلة شقية! ما رأيك يا«دارت»؟

– لا يمكن توقع ما ستفعله بعد دقائق. وكادت «كولبي» تصرخ غضبًا، إلا أنها تمالكت أعصابها عندما التقت عيناها بعينيه المداعبتين.

– فليسمح لي الكبار بالانصراف الآن. أود أن أستبدل ثيابي للعشاء. وصعدت «كولبي» الدرج راكضة إلى غرفتها. توقفت طويلا أمام المرآة، تنظر إلى صورتها بعين ناقدة، كم تمنت لو كانت أكثر طولا! لا تستطيع أن تنكر أن «دارت» و«روشيل» يليق كل منهما للآخر فعلا! وشعرت بغصة وهي تتخيلهما معًا. فمدّت لسانها بحركة طفولية للوجه الصغير القلق الذي يتراءى لها في المرآة. ماذا بها حتى تعلق كل هذه الأهمية على شعور «روشيل» تجاهها؟ لا يمكنها أن تفرض محبتها على الجميع... لكن «روشيل» تنظر إليها دائمًا بسخرية مزعجة تضايقها فعلا. وانتهت «كولبي» من إعادة ترتيب زينتها، وارتدت فستانًا حريريًّا برتقالي اللون. ما زال أمامها ساعة كاملة للعشاء. اختارت كتابًا وجلست تقرأ. واستغرقتها القصة فلم تشعر بمرور الوقت، حتى دقت ساعة البورسلين الصغيرة تشير إلى السادسة والنصف. نزلت إلى غرفة الجلوس، فوجدت أن «روشيل» سبقتها إلى هناك. وما إن رأتها تدخل حتى علقت قائلة:

– تبدين أصغر من عمرك يا«كولبي». واضح أنك نشأت محاطة بالعناية

والحنان. وهذا لن يفيدك في هذه الأرض القاسية. تذكري أنك لم تعودي طفلة.

– أعرف جيدًا أنني لم أعد طفلة يا«روشيل».

– يلزمك بعض الوقت.

– بعض الوقت لماذا؟

– لتعرفي أنك لا تنتمين إلى هذه الأرض.

– لا أعرف لماذا تتصرفين معي بهذا الجفاء يا«روشيل»؟ لكنك مخطئة. أنا أنتمي إلى هذه الأرض. أنا جزء منها وهي جزء مني.

– حسنًا. لا أعتقد أني سأحبك أبدًا يا«كولبي»، وإن كنت سأتظاهر بعكس ذلك أمام «دارت». أنا سأفعل أي شيء للحصول عليه.

– تفاجئينني دائمًا... ودخل «ستيفن» الغرفة، فكفّت «كولبي» عن الحديث.

– ما بكما؟ أشعر بالتوتر في الأجواء.

– أعتقد أن الآنسة «كينغ» الصغيرة لا تحبني.

– أعطيها بعض الوقت. ألم نتعلم كلنا أن نحبك؟ وكاد الحديث يتحول إلى مشادة حامية لولا دخول «بيللا» ووراءها «دارت» و«مايك» و«سوزان». «بيللا» بدت أنيقة جدًّا في ردائها الوردي. أما «سوزان» فكانت مختلفة بشعرها المسرّح. «مايك» و«دارت» استبدلا بقمصانهما العادية قميصين حريريّين أبرزا لون وجهيهما البرنزيين. وجلست «كولبي» تراقبهم جميعًا. تخلّت «روشيل» عن كل تصرفاتها الهازئة لتحيّي القادمين برقة وأنوثة. سألت «مايك» بدلال عن أحواله، وأفسحت مجالا لـ«بيللا»؛ لتجلس قربها على المقعد العريض. بدت وكأنها تعتقد فعلا أنها جزء من العائلة. ولاحظ «ستيفن» صمت «كولبي» فجلس قربها يخبرها بتفصيل ومرح بالأحداث التي حصلت له ذاك اليوم. وضحكت له «كولبي» مشجعة ودخلا في حديث جانبي بعيدًا عن الحوار العام الدائر في الغرفة. وقاطعها صوت «دارت» الذي علق عاليًا، يحاول لفت انتباهها:

– لا أعتقد أنهما سمعا ما نقول. وضحكت «روشيل» ضحكة مشبعة بالمعاني. وقالت:

– طبعًا لا. على أي حال نستطيع أن نخبرهما بعد العشاء. ولم تذكر «كولبي» ما حدث بعد ذلك. نسيت كل شيء وهي ترى «دارت» ينظر إليها بغضب. تُرى ماذا قالت له عنها؟ هذه الفتاة لا تجلب إلا المشاكل. وقطع حبل أفكارها صوت «ستيفن» يعاتبها ضاحكًا:

– ما بك؟ هل أصبحت فتاة سلبية لا تعرف معنى كلمة لا؟ ولم تفهم «كولبي» قصده فتابع قائلا:

– في الدقائق الأخيرة أجبت بنعم على أكثر اقتراحاتي سخفًا.

– آسفة يا «ستيفن». لم أسمعك. يبدو أني كنت أحلم.

– لاحظت ذلك. وجاء دور الحلوى. فتناولت «كولبي» شيئًا منها وهي تحاول السيطرة على انفعالاتها. كانت تشعر بنظرة «روشيل» القاسية والساخرة تستقر عليها بين وقت وآخر. ومن حسن الحظ أن «بيللا» وحدها كانت تدير دفة الحديث، لم يكن على «كولبي» إلا إظهار اهتمام مهذب. وتشعب الحديث حتى تناول وسائل الترفيه المتوفرة للسيدات في تلك المنطقة. فتبرعت «روشيل» بتقديم اقتراح لتمضية إجازة خاصة جدًا.

– ما رأيكم بليلة نخيّم فيها في العراء تحت النجوم، ونتحلق حول النار وسط إحدى البقع النائية؟ وتكاسلت نظراتها على «دارت» وهي تتابع بغنج:

– وبما أنكم معنا فلن نخشى شيئًا. تحمست «سوزان» للفكرة ووافق عليها «دارت». أما «كولبي» فانزعجت من الاهتمام الواضح الذي أبداه ابن عمها لاقتراح «روشيل». حتى هو لن يستطيع الصمود أمام إغراء فتاة كهذه. وخرجت «كولبي» إلى الشرفة فور انتهاء العشاء، فلحق بها «مايك». وقال لها:

– ما بك يا «كولبي»؟ أتمنى ألا تكون «روشيل» قد تمكنت منك!

– هل بدا عليّ ذلك؟

– وجهك البريء ما زال صغيرًا على ارتداء الأقنعة.

– على أي حال فكرة «روشيل» في القيام بهذه الرحلة لا بأس بها، سأهتم

بك وأحميك يا «كولبي» الصغيرة.

– وهل تعتقد فعلا أني أحتاج إلى من يحميني؟ وعادا إلى غرفة الجلوس. أسرعت «سوزان» لتستأثر باهتمام «مايك»، فاستغلت «كولبي» الفرصة لتهرب مجددا إلى الشرفة. كانت تريد البقاء وحيدة لفترة.

الليل كان موحشًا وداكنًا والسماء ملبّدة بالغيوم. حاولت «كولبي» أن تفكر في أمر يريحها ويفرحها، فاتجهت بأفكارها إلى «سورشا»، فرسها الجميلة التي لم تعرف مثل أصالتها على الإطلاق. وهي الآن ملكها... تخصها وحدها.

وسمعت «كولبي» وقع أقدام وراءها، فحاولت أن تختفي في الظلال الداكنة. لكن «دارت» كان أسرع منها فأمسك بمعصمها بشدة وأخرجها إلى بقعة النور المتسللة عبر الباب المفتوح.

– ماذا تفعلين يا صغيرتي؟

– كنت أفكر في «سورشا».

– قولي الحقيقة يا «كولبي». هل بدأ قلبك الشاب يعرف معنى الحب؟ وأحسّت «كولبي» بحمرة الخجل تلون وجنتيها.

– آه يا «دارت». كيف استطعت أن تقول ذلك؟ أنا لم أعرف معنى الحب بعد.

– حسنًا. ابتعدي عن الأفكار الرومانسية حتى أسمح لك أنا بها. أنا الوصي عليك. وسأحميك حتى تصبحي بالنضج الكافي للاهتمام بأمورك الخاصة. وابتعدت عنه مجروحة الكرامة.

– أنت لا تطاق. يا لك من إنسان مستبد يا «دارت»! سأفعل ما يحلو لي!

– حقًا! سنرى! كنت دائمًا طفلة عنيدة، لكننا سنرى ما ستفعلينه هذه المرة.

- 5 -

أشرقت الشمس بكل جلالها لتغرق الأرض بأولى هبّات الموسم الحارّ. اختالت مبطئة في قبة السماء، ورمت بردائها الذهبي على العشب الطري الذي استيقظ للحياة عند أولى زخّات أمطار شهر تشرين الأول (أكتوبر). القطعان انتشرت بتكاسل على التلال تلتهم الطعام في هدوء تحت إشراف العمال الذين استفاقوا مع الفجر ليعتنوا بها.

وفي الأفق، ركضت فرس بنية اللون تسابق الريح جذلى وهي تفتح صدرها لروعة الشروق. واستراح «دارت» على صهوة جواده يراقبها عن بعد. لابد من أنها «كولبي»! كم من الكيلومترات يا ترى قطعت هذا الصباح! يجب أن يمنعها من الابتعاد عن المنزل أكثر من تسعة عشر كيلومترًا، ما لم يكن معها رفيق يحميها. وابتسم وهو يتخيّل رد فعلها على هذا القرار الجديد.

يا لها من فارسة ماهرة! كانت تشكل والفرس وحدة منسجمة تتمايل على الإيقاع ذاته. شعرها كان يتطاير في الهواء حرًّا بعدما سقطت قبعتها عن رأسها، لتستقرّ على ظهرها عالقة بخيط رفيع حول العنق. تستطيع هذه الفتاة رغم رقتها، أن تتعامل مع معظم الخيول في إسطبله، طبعًا ما عدا جواده الخاص الذي يحتاج إلى قوة رجل للسيطرة عليه. ها هي تقترب منه الآن! إنه يرى ملامحها تتألق فرحًا بروعة الصباح، وحمرة خفيفة تركتها الشمس على وجنتيها. لوحت له بيدها، وصرخت عن بعد:

– «دارت» انتظرني! كم مرّة سمع منها هذه العبارة حين كانت طفلة. انفرج فمه عن ابتسامة ساخرة فور وقوفها إلى جانبه.

– أرى أني لم أضيّع –دون جدوى– ساعات طويلة في تعليمك الفروسية. أنت فارسة أصيلة يا آنسة «كولبي».

– فرسي هي الأصيلة. كانت فخورة بها. انحنت تربت بحنان عنقها الجميل الحساس.

– قولي لي يا آنسة «كولبي»: ما هي المسافة التي قطعتها اليوم؟ وضحكت عيناها وهي تشدّ لجام «سورشا» لتدور بها حول «دارت»:

– أرفض الإجابة عن أيّ سؤال قبل الساعة العاشرة صباحًا. وأضافت مداعبة:

– لا تقل لي إنك ستصدر قرارًا جديدًا، يا عزيزي «دارت»، يحدد المسافة المسموح لي بأن أجتازها كل يوم. وقطب «دارت» حاجبيه، وقبل أن يجيب بكلمة واحدة انطلقت «كولبي» بفرسها. وعلى بعد أمتار قليلة انحنت برشاقة لتقطف وردة قبل أن تنتصب باعتداد على صهوة فرسها. وعادت إلى «دارت» والوردة في شعرها، رمزًا أنثويًا للانتصار. جمد «دارت» كالتمثال فوق حصانه، ولم يخن وجهه الصلب ما يشعر به. لجمت «كولبي» فرسها قربه وهي تحس بالحياة تضج في عروقها. وفجأة تحرّك «دارت» كالشرارة ليرفعها عن صهوتها في لمحة خاطفة، ويضعها على السرج أمامه.

– ما زال أمامك الكثير لتتعلميه. ونظرت إليه معجبة بمهارته وسرعته. كانت الشمس تتلاعب فوق وجهها الجذاب، وبدت عيناها الخضراوان أكثر اخضرارًا. وأجابته بمرح طفولي:

– أليس أمامنا جميعًا الكثير بعد لنتعلمه؟ والتقت نظراتهما في تحدٍّ. فأعاد «دارت» وضع القبعة على رأسها قائلا:

– هذه القبعة صنعت لترتديها. وبضربة خفيفة أرسل «سورشا» عائدة إلى المنزل دون فارستها التي ظلت أسيرة على جواد «دارت».

«روشيل» و«سوزان» كانتا تتسامران في الشرفة عندما وصلا إلى البيت الكبير. ترجل «دارت» أولا ورفع ذراعيه ليساعد «كولبي» لكنها كانت قد سبقته بالقفز عن صهوة الجواد بلا مساعدة. وسلم «دارت» لجام الجواد إلى «بن» الذي يظهر دائمًا في الوقت المناسب، وكأنه يشعر بحدسه أن «دارت» يحتاج إليه. وابتسمت «كولبي» للعجوز وهي تسأله:

– هل عادت «سورشا» إلى المنزل؟

– نعم يا آنستي. هي في الإسطبل الآن. نزعت عنها سرجها ونظفتها من الغبار العالق بها، إنها فرس أصيلة وأنت تعرفين كيف تتعاملين معها.

وأحنت «روشيل» رأسها فوق السور الحديدي. وقالت:

– استيقظتما باكرًا. أرى حصانًا واحدًا. لماذا؟ فأجابها «دارت» مبتسمًا:

– كنا نمارس بعض ألعاب الفروسية. من أعدّ لي طعام الفطور؟ أنت يا«روشيل»؟ صباح الخير يا«سوزان». هيّا جميعًا إلى غرفة الطعام.

كان «ستيفن» قد سبقهم إلى المائدة. أما «بيللا»، فكانت تحرص دائمًا، كسيدة «كنغارا»، على تناول الفطور في فراشها. لاحظت «كولبي» صحن «ستيفن» العارم بالبيض المسلوق، والبطاطا المقلية، واللحم، فضحكت مداعبة:

– يا إلهي! هل ستأكل كل هذا؟

– نعم، معدتي ليست كمعدتك مثل العصفور. وابتسم وهو يبتلع قطعتين كبيرتين مشبعتين بالزبدة. ونظرت «سوزان» إلى «كولبي» وهي تتناول طعامها.

– كم أتمنى لو أستطيع أن أتبع نظامًا غذائيًا مثلك لأحافظ على رشاقتي!

وضحكت «كولبي» عاليًا:

– ولكني لا أتبع أيّ نظام غذائي. أنا من الناس الذين يحرقون بسرعة الوحدات الحرارية الزائدة.

– يا لك من محظوظة! وقاطعهما «دارت»:

– إذا وافقت الفتيات على الفكرة، سنذهب غدًا إلى منطقة «كوكا – يارا– بوندي»، وسنخيم ليلا في التلال. أعتقد أنكن ستستمتعن بهذه الرحلة.

وكانت «روشيل» أول من وافق على الفكرة قائلة:

– رائع يا «دارت». طبعًا ستأتين معنا يا«سوزان»!

– طبعًا. لن يستطيع أحد أن يبقيني في المنزل. ولم تتمالك نفسها من الالتفات مبتسمة إلى «كولبي» التي بدأ سحرها العفوي يتسلل إلى أعماقها.

– سنتمتع بوقتنا. أليس كذلك يا«كولبي»؟

– بلى. أتصوّر الآن نيران المخيم بهالتها البرتقالية البراقة، وأطراف السجائر المشتعلة، والوجوه البرنزية المألوفة. وأرى القمر يتأرجح في السماء ليلقي بخيوطه الفضية على الخيول الساكنة في الظلمة. وأسمع أصوات الحيوانات الليلية تنطلق من الزوايا السرية والأرض...

– يا لك من فتاة رومانسية! كانت هذه «روشيل» تقطع ببرود الحلم الذي كانت تنسجه «كولبي» بحب. فالتقط «دارت» آخر الخيط وتابع نسج اللوحة وفي عينيه شيء ما أضاف على الحلم بعدًا جديدًا.

– والأرض تعبق بألف عطر وعطر. إنها أرض الأساطير، والأحلام، والأسرار. التراب يضج بقصص الماضي، وبالرموز الدينية التي يؤمن بها السكان الأصليون. ولم تترك عينا «روشيل» وجه «دارت» وهو يتحدث بحلم عن الأرض التي يعيش فيها.

– وصفك رائع حقًا يا«دارت». أمضيت في هذه البلاد أربع سنوات وما زلت لا أعرف عنها شيئًا. أرادت «كولبي» في تلك اللحظة أن تقول لـ«روشيل» إن السكان الأصليين لا يكشفون أسرارهم وتقاليدهم إلا للذين يبرهنون عن جدارة على الثقة، وعلى احترام لتراثهم. وإن «روشيل» بتصرفاتها الجافة لم تفعل شيئًا لتتقرب منهم. لكنها لم تقل شيئًا بل تابعت الحديث حيث توقف «دارت»:

– أساطير السكان الأصليين هي جذور طفولتي. هل تذكر العجوز «مولا» يا«دارت»؟ كان يقول إن الذي ينسى حلمه هو إنسان ضائع.

– نعم. أذكر يا «كولبي». للحلم أهمية كبيرة في حياتهم ومعتقداتهم وتقاليدهم.

وشعرت «روشيل» بأنها بعيدة جدًا عن الحديث فتدخلت تقطع السمر:

– ستخبرني لاحقًا بكل هذه القصص المسلية. أليس كذلك يا«دارت»؟

وابتسمت له بدلال.

– طبعًا يا«روشيل». ما رأيك في الليلة؟ وفضح وجه «روشيل» شوقها:

– حسنًا. إلى هذا المساء.

– سأذهب إلى الحظائر الآن. لو خطر لك أن تلحقي بي فسأكون قرب النهر.
والتفت إلى «كولبي» ليضيف:
– ولا تنسي وضع قبعتك. أنا لا أضطر إلى تذكير «روشيل» أو «سوزان» بذلك. وفور انصراف «دارت»، اعتذرت «روشيل» وخرجت لتستلقي تحت أشعة الشمس.
– تعالي معي يا«سوزان».
– سألحق بك بعد دقائق. عليّ أولا تنظيف الطاولة. فعرضت «كولبي» خدماتها.
– اذهبي يا«سوزان». سأقوم عنك بالعمل.
– شكرًا. «روشيل» وأنا لدينا الكثير لنتحدث عنه. ورمت بمنديلها على الطاولة لتلحق بصديقتها. وانصرفت «كولبي» إلى العمل وهي شاردة الذهن. فلم تسمع السيدة «إيفانز» تدخل الغرفة.
– صباح الخير يا آنسة «كولبي». شكرًا لمساعدتك.
– هل تسمحين لي بتجفيف الأواني بعد انتهائك من غسلها؟
– أتريدين ذلك حقًا يا«كولبي»؟
– ولمَ لا؟ أعتقد أن لديك الكثير من الأعمال تريدين إنجازها.
– لا أنكر ذلك. لكن... حسنًا، تعالي معي إلى المطبخ. لن أضطر على الأقل إلى لملمة بقايا الأواني المتكسرة بعد انتهائك من تجفيفها. وضحكت «كولبي» وهي تلحق بها. وبعد فترة دخلت «ميني» الخادمة الصغيرة. كان لها أطول رموش رأتها «كولبي». وابتسمت «ميني» بخجل فقامت السيدة «إيفانز» بالتعارف.
– «ميني»... هذه «كولبي»، ابنة عم السيّد «دارت». هيّا يا صغيرتي، خذي هذه السلة واذهبي إلى الحديقة. اختاري لنا أجمل الورد قبل أن تذبلها حرارة الشمس. ولا تتأخري كعادتك.
– وفور عودتك يا «ميني»، سأقوم بترتيب الزهور في الآنية الملونة. وابتسمت «ميني» بثقة وهي تحيّي «كولبي». وخرجت تتمايل بمشية راقصة لتعود بعد قليل بمهرجان رائع من البنفسج والورد. وعندما بدأت «كولبي» تنسيق الزهور

في كل أرجاء غرفة الجلوس، وقفت «ميني» تراقبها بصمت لدقائق وهي تتأرجح على قدم واحدة.
– ما رأيك يا«ميني». هل أعجبك تنسيق الزهور؟
– لم أرَ أجمل منه.
– أنا متأكدة أنك تستطيعين القيام بالعمل ذاته بل وبطريقة أفضل.
– أعتقد أني سأكون أفضل في هذا العمل من تجفيف الصحون التي لا أعرف كيف تنساب من بين أصابعي دون أن أتمكن من التقاطها. وضحكت الفتاتان.
واعتذرت «ميني» إلى «كولبي» فور سماعها وقع قدمي «بيللا».
– عليّ أن أذهب الآن، السيدة الكبيرة آتية. واختفت فور دخول «بيللا» الغرفة.
– صباح الخير يا«كولبي». ما أجمل هذه الزهور! نسّقتها فعلا بكثير من الفن والحب. أين «سوزان» و«روشيل»؟
– في الشرفة يا عمتي.
– تتحدثان كالعادة. لن نزعجهما. ما رأيك يا عزيزتي في تناول الشاي معي؟ السيدة «إيفانز» تحضره لي كل صباح في غرفة الجلوس الخاصة بي، تعالي معي. وسبقتها إلى الجناح الغربي من المنزل. وعندما دخلت «كولبي» غرفة الجلوس الخاصة بـ«بيللا» وقفت تتأملها برهة. إنها الغرفة الوحيدة في المنزل التي تحمل طابعها الخاص. الألوان دافئة تتدرج بين تموجات البرتقالي والذهبي. الرفوف كانت تحمل عددًا كبيرًا من الكتب، وازدانت الجدران بلوحات تمثل التلال الرملية عندما تخلع عليها شمس المغيب ظلالا قرمزية. وأغلقت «بيللا» الستائر.
– سيكون هذا النهار شديد الحرارة.
– أحبّ الحرّ يا عمتي، يجعلني أشعر بالحيوية.
– كم تشبهين «دارت»! هو دائمًا يقول ذلك. لكن انتبهي، يا عزيزتي. لاتتعرضي كثيرًا لأشعة الشمس، إنها مؤذية. ودخلت السيدة «إيفانز» بعد أن

نقرت على الباب بضربة خفيفة.

– رأيت الآنسة «كولبي» تدخل معك فأضفت فنجانًا آخر.

– شكرًا لك. تركت السيدة «إيفانز» الصينية الحافلة بأنواع الحلوى وخرجت بعدما أغلقت وراءها الباب بهدوء.

جلست «بيللا» وراء المائدة الصغيرة؛ لتصبّ الشاي من الإبريق الفضي برشاقة تدل على خبرة طويلة. وراء الأواني الفضية لم يعد فيها شيء من المرأة المزارعة، بل بدت على طبيعتها سيدة أرستقراطية جاء بها العم «سيروس» من المدينة، وانتزعها من محيطها الطبيعي؛ لتهتم بشؤون «كنغارا».

– هل تحبين الحليب (اللبن) مع الشاي يا«كولبي»؟

– لا شكرًا يا عمتي. ودخلت «ميني» تحمل وعاء السكّر. أرادت أن تؤدي تحية مهذبة فانحنت باحترام. لكن محاولتها انتهت بأن علق إبهام قدمها بالسجادة فتعثرت ووقعت في حضن «بيللا». لكنها لم تكسر شيئًا هذه المرة.

– لم أكسر شيئًا هذه المرة يا سيدتي. وحافظت «بيللا» على برود أعصابها وهي تقول:

– حسنًا يا «ميني». اخرجي الآن. وحاولت «كولبي» السيطرة على ضحكاتها المكتومة وهي ترى استياء «بيللا». إنها تحب «ميني» على الرغم من كل الكوارث الصغيرة التي تحدث فور دخولها المنزل وتناست «بيللا» الموضوع.

– «كولبي». قلت لي أمس إنك تريدين مساعدتي في المراسلات. لا أريد أن أستعجلك. لكني سأكون سعيدة جدًا لو وفيت بوعدك. لا تعرفين كم أكره هذا العمل.

– أنا سعيدة لأني أستطيع مساعدتك يا عمتي. إنني أكره البقاء دون عمل. وتردّدت «بيللا» قبل أن تتابع قائلة:

– هل تساعدينني اليوم؟

– ولمَ لا الآن؟ ومرّ الصباح في إنجاز المراسلات. عادت «روشيل» و«سوزان» من نزهة بعد الظهر وهما تتألقان نشاطًا وحيوية. كانت «كولبي» تقف في الشرفة

تبحث عن «بوكا». تريده أن يسمع البرنامج الدراسي الذي يبثه الراديو المحلي يوميًا لأطفال السكان الأصليين. ونظرت إليها «سوزان» عاتبة.

– ماذا حدث لك؟ أين كنت؟

– كنت أساعد العمة «بيللا». هل استمتعتما بوقتكما؟ أجابتها «روشيل» بحدة:

– وما الذي يجعلك تعتقدين أننا لم نستمتع بنزهتنا؟ استغربت «سوزان» ردّ فعل صديقتها، فعقدت حاجبيها استياء. كم كانت تشبه والدتها في تلك اللحظة!

– «دارت» سأل عنك يا «كولبي». قالت له «روشيل» إنك رفضت مرافقتنا. لكن طبعًا إذا كنت تساعدين والدتي... تردّدت، فأنقذتها «كولبي» من اضطرابها.

– لا تهتمي بالأمر سأخرج بعد قليل. وابتسمت لها «سوزان» بمودة، فتدخلت «روشيل» لتقطع الحديث.

– هل سنمضي النهار كله هنا؟ أشعر بالعطش. «سوزان». أريد شرابًا باردًا وأكثري فيه الثلج.

– حسنًا يا«روشيل». اسبقيني إلى غرفة الجلوس. هل تريدين شرابًا باردًا يا«كولبي»؟

– لا، شكرًا أحاول العثور على «بوكا».

– مهمتك صعبة. ليس من السهل إيجاده. وانتظرت «روشيل» أن تدخل «سوزان» أولا إلى المنزل لتلحق بها. فهي لم ترد أن تسمع صديقتها عبارتها الأخيرة.

– «كولبي». تلعبين دور المساعدة الصغيرة أليس كذلك؟ لم تجبها «كولبي» وكأنها لم تسمعها. وبعد خمس عشرة دقيقة رأت «كولبي» «بوكا» قرب الإسطبل. ألقت كتابها وانطلقت كالسهم لتمسك به قبل أن يختفي! فاصطدمت بـ«دارت» الذي كان يصعد الدرج بتمهل.

– يا إلهي! عليّ منذ اليوم أن أربط جرسًا حول رقبتي ينذر رنينه بقدومي،

www.rewity.com

فلا أتعرّض لحادث اصطدام مرّة أخرى. هل لي أن أسألك إلى أين أنت ذاهبة؟

– لألحق بـ«بوكا». هناك درس مهم بالمذياع أريده أن يسمعه.

– لا تستعجلي الأمور يا صغيرتي. «بوكا» سيعيش طوال حياته في هذه المزرعة بين أبناء جنسه وفي محيطه الطبيعي. هؤلاء الناس أنا مسؤول عنهم.

– لكنه يحتاج إلى الثقافة يا«دارت».

– طبعًا. وسيحصل عليها. لكنها ستكون ثقافة أجداده وأبناء عرقه. «بوكا» خرج إلى الأحراش منذ كان طفلا في الثانية من عمره، وتعلم من الطبيعة أسرارها وخصائصها. والسكان الأصليون يعتزون جدًّا بحضارتهم. اسمعيني جيدًا يا«كولبي»، إن لي خبرة طويلة في هذا المجال. فتسعة من عشرة لايستوعبون ثقافة الرجل الأبيض، ولا يستفيدون منها. والسبب ليس بساطتهم أو أنه ينقصهم الذكاء، بل لأنهم يرون سعادتهم الحقيقية في الانصهار في الطبيعة.

– ماذا تريدني أن أفعل يا«دارت»؟

– كما تريدين أنت يا صغيرتي. لكن لا تنسي أن «بوكا» ليس بطفل أبيض وأن طموحاته وأهدافه كلها تنبع من واقع بيئته. شجعيه على القراءة وساعديه بما تستطيعين لكن لا تحاولي أبدًا فرض وجهة نظرك عليه. ووضع يده على كتفها بحنان. ثم أردف قائلا:

– أنت طفلة طيبة يا«كولبي»... أخبريني الآن، لماذا رفضت الخروج من المنزل اليوم؟

– كنت أساعد العمة «بيللا» على إنهاء بعض الرسائل المتأخرة.

– حسنًا. تعالي معي الآن. لكن اذهبي أولا لتغيير فستانك هذا؟

– لماذا؟ ألا يعجبك؟

– بلى. لكني لا أعرف ماذا سيحدث لحرارة «مايك»؟ وبرقت عينا «كولبي» بضحكة أنثوية:

– حسنًا سأعود بعد دقيقة واحدة.

– لن أنتظرك أكثر من ذلك. وعادت «كولبي» بعد دقائق ثلاث فقط، وهي ترتدي سروالا مريحًا، وقميصًا فاتح اللون، وعلى عنقها ربطت منديلا حريريًا بلون شعرها. وتفحّصها «دارت» طويلا.

– ما بك تنظر إليّ هكذا يا«دارت». هل تتفحصني؟

– أنا أتفحّص كل النساء عادة. لكن عندما يتعلق الأمر بك عليّ أن أنتبه لنفسي.

– لا أفهم قصدك.

– ومتى ستصبحين قادرة على الفهم يا صغيرتي؟ وفي عينيه الرماديتين تلاعبت ابتسامة مداعبة، فرفعت «كولبي» حاجبيها بلا مبالاة مصطنعة. وقالت:

– ربما كنت أفهمك أكثر مما تظن فعلا! وضحك وهو يتأبط ذراعها، ليمشي معها إلى الإسطبل. وقال:

– كفّي عن هذه الادعاءات يا صغيرتي. ما زلت طفلة لا تعرف شيئًا بعد عن الحياة.

رآهما «بن» عن بعد، فأحضر لهما جواديهما. وكعادتها لم تنتظر «كولبي» أن يساعدها «دارت»، فأسرعت تمتطي صهوة فرسها. وانطلقا معًا. لفّهما الصمت دقائق طويلة. كانت «كولبي» تسترق بين حين وآخر نظرة خاطفة إلى وجه «دارت» الأسمر، الذي كان يعبر بكل ملامحه عن سعادة الرجل الفخور بملكيته. هذه أرضه، وهذه مزرعته، وهذا قطيعه. بلاده تمتد واسعة كالبحر وفيها التحدي ذاته. كانت أولا وآخرًا عالمًا للرجال بقوتها وقساوتها لكن «كولبي» كانت تحبها كما يحبها «دارت». دماء «كينغ» تجري في عروقها، ومعها الإصرار على التحدّي وحب الحياة. عنفوان آل «كينغ» كان يشع من عينيها ويظهر في حيوية حركاتها وشخصيتها. إنها فعلا ابنة عم «دارت»! كم كانت «روشيل» مخطئة! إنها تنتمي إلى هذه الأرض وجذورها مغروسة عميقًا فيها. ألم يكن العم «سيروس» يدعوها بابنة الشمس؟ ولاحظ «دارت»

www.rewity.com

ابتسامتها الساهمة. وقال:

– فيم تفكرين؟ ابتسمت له وهي تحمي عينيها بيد واحدة.

– كنت أتذكر الاسم الذي أطلقه عليّ العم «سيروس»: ابنة الشمس. وخلعت قبعتها لتتمتع بأشعة الشمس تتسلل بين خصلات شعرها. وأسرع «دارت» لإعادة القبعة إلى مكانها.

– أنت مزعج حقًا يا«دارت»! هل تظن أني سأموت نتيجة التعرض قليلا لأشعة الشمس؟ وقلّد «دارت» نبرة صوتها وهو يجيب:

– أنت مزعجة حقًا يا«كولبي»! كنت أعتقد أنك تعرفين أكثر من غيرك أن التعرض لحرارة الشمس في هذه المنطقة مؤذٍ للغاية. وأستغرب فعلا أنك لم تقدّري بعد أهمية ملاحظتي. على أي حال أنا السيد هنا وعليك إطاعة أوامري. جدية كلماته ناقضها البريق المرح في عينيه اللتين استقرتا على بشرتها.

– أنت فتاة محظوظة فعلا، لأنك تملكين بشرة صافية كهذه. حمراوات الشعر معرضات عادة للإصابة بسرطان الجلد، خاصة اللواتي يتنزهن في حرّ الظهيرة دون قبعة.

– ربما كنت على حق. وشدّت قليلا على لجام «سورشا»، التي أسرعت الخطى تلبية لرغبة فارستها. النهار كان حارًا وجافًا كما توقعت «بيللا». ناداها «دارت» لتتمهل قليلا، لكنها أصرت على المضي قدمًا وهي تشعر بشبابها يكاد يتفجر حيوية في عروقها. وأمام قساوة الطبيعة أحسّت بعدم الثقة بالنفس وكأنها حيوان برّي يبحث عن ملجإ بعدما كشف مكانه الصيادون. وتركها «دارت» تنطلق وحيدة حتى اقتربت من القطيع، فلحق بها في لحظة.

– كنت تتصرفين كطفلة عنيدة وصعبة. أليس كذلك؟ وشعرت «كولبي» وكأن قلبها يقفز من مكانه عندما سمعت صوت «دارت». وانتظرت أن يهدأ خفقانه قبل أن تلتفت إلى ابن عمها وعلى شفتيها ابتسامة اعتذار.

– أعتقد أني تصرفت فعلا كطفلة. كن صبورًا معي يا«دارت». ولم تترك عيناه وجهها، وكأنه أراد إبقاء ملامحها سجينة فيهما. وتململت «سورشا»، فربتت «كولبي» ظهرها مطمئنة. وأقبل عليهما «مايك» من بعيد، فلوح له «دارت». وقال لـ«كولبي»:

– «كولبي». انتظري «مايك». أريد أن أتحدث إلى «ماغاني». وابتعد عنها مسرعًا باتجاه القطيع. وبعد خمس دقائق كان «مايك» يقف أمامها مبتسمًا.

– صباح الخير يا آنسة «كولبي». تبدين دائمًا أكثر جمالاً. كيف تفعلين ذلك؟ استراحت «كولبي» على صهوة فرسها، وهي تقاوم رغبة عارمة في خلع قبعتها.

– إنها طبيعة الأنثى يا«مايك». وانتقل «مايك» بنظره من الفتاة الرشيقة، إلى الفرس البنية التي أحنت رأسها لتداعب العشب الطري.

– يا لها من حيوان جميل! جمالها ينبع من أصالتها. لا أعتقد أني رأيت مثل لونها من قبل. انظري إلى الطريقة التي تأكل بها العشب. تبدو كسيدة أرستقراطية. ورفعت «سورشا» رأسها باعتداد، وحدقت إلى الرجل الواقف أمامها، وكأنها تفهم وتقدر إعجابه بها. وضرب «مايك» على رأسه فجأة، وكأنه تذكر شيئًا مهمًا.

– يا إلهي! كيف نسيت! سمعت منذ حين قصة من أحد السكان الأصليين المتقدمين في السن. عليّ أن أخبر «دارت» فورًا بما قال. لابد من أن ألحق به بسرعة. قالت «كولبي» مستغربة القلق الواضح في صوته:

– ها هو «دارت» آت إلينا. وما إن توقف «دارت» قربهما، حتى قال «مايك»:

– «دارت». أخبرني عجوز منذ قليل بأنه رأى رجلا وامرأة يوقفان سيارتهما قرب مركز الحرس القديم. وعقد «دارت» حاجبيه باهتمام قلق.

– ومتى كان ذلك؟

– رآهما عند الشروق. لكنه لم يستطع الوصول إلى المزرعة لإبلاغنا إلا منذ

www.rewity.com

دقائق قليلة. طلبت إليه أن ينتظرك.

– حسنًا. أين هو؟ وقاده «مايك» إلى جذع شجرة يابسة، استلقى تحتها رجل عجوز حفرت السنوات أخاديد عميقة على خديه. انحنى «دارت» على العجوز ودخلا في حوار باللغة المحلية، نهض بعده «دارت» مسرعًا.

– آمل أن نصل إليهما في الوقت المناسب. أخبرني العجوز بأنه رأى الرجل يغادر سيارته، أما المرأة فيبدو أنها لم تتحرك من مكانها. أن يترك المرء سيارته ليتجول على الأقدام في حرّ المنطقة النائية. ودون أن يعرف شيئًا عن طبيعة هذه الأرض، فهذا جنون قد ينتهي بمأساة. علينا أن نلحق بهما قبل فوات الأوان. من حسن الحظ أن الحرّ لم يشتد بعد، وأننا نعرف مكانهما بالتحديد. صرخ «مايك» و«كولبي» في آن واحد:

– سنأتي معك. فأصدر «دارت» تعليماته بسرعة.

– «مايك» أحضر السيارة الجيب. سنعود أولا إلى المنزل الكبير. هيّا يا«كولبي». ولم ينطق أحدهم بكلمة واحدة، والسيّارة تشق طريقها وسط التلال الرملية. وعند وصولهم إلى المنزل الكبير كانت «بيللا» تنتظرهم في الشرفة. أحسّت بحاستها السادسة، التي تكتسبها كل النساء اللواتي يعشن طويلا في المناطق النائية، أن أمرًا مهمًّا حدث.

– ماذا حدث يا«دارت»؟

– رجل وامرأة أوقفا سيارتهما قرب مركز الحرس القديم. سألحق بهما.

– من الأفضل أن أرافقك يا«دارت». وأسرعت عائدة إلى المنزل. لكن «دارت» ناداها قائلا:

– سآخذ «كولبي» معي يا«بيللا». الأفضل أن تبقي هنا؛ للاستعداد لاستقبالهما. أنت تعرفين جيدًا ما يحتاج إليه المرء في مثل هذه الحالة.

– حسنًا. تعالي معي يا«كولبي» لأعطيك حقيبة الإسعافات الأولية. والتفتت إلى ابنتها «سوزان» التي خرجت إلى الشرفة برفقة «روشيل».

– «سوزان». أحضري وعاء من الماء وأحكمي إغلاقه. وقفت «روشيل» دون

حراك، وهي تركّز كل اهتمامها في «دارت».

– وأنت يا«دارت». هل لديك مؤونة كافية من مياه الشرب؟

– نعم. وضعتها في السيارة.

– كيف يضع الناس أنفسهم في مواقف كهذه؟ وكأن لا شغل لك إلا اللحاق بسائحين متهوّرين لا يقدّران عاقبة استخفافهما بالتحذيرات التي لابد من أن تكون قد وجّهت إليهما حول خطر التجوّل في هذه المنطقة دون دليل.

– الحمد لله، إننا لم ندخل بعد موسم الصيف. اكتفى «دارت» بهذا الرد، والتفت ليساعد «مايك» على إعداد السيارة الجيب. وعادت «كولبي» بعد قليل تحمل حقيبة الإسعافات الأولية، ووراءها «بيللا» تردد بصوت عالٍ:

– الحمد لله، إن الحرّ لم يشتد بعد. جلس «دارت» أمام مقود الجيب وإلى جانبه «مايك» و«كولبي». وما إن أدار محرّك السيارة حتى ساد الصمت. لم يكن أحد منهم ليعرف ماذا ينتظرهم في نهاية الرحلة. ففي المساحات الرملية الشاسعة والخالية من الأشجار، يسهل على المرء أن يضيع وهو يلاحق سرابًا يتلألأ عن بعد، ومياهًا وهمية يتحامل التائه على عطشه ليصل إليها، فتهرب منه حتى يسقط تعبًا فتتلاشى تمامًا.

كان «دارت» يحدق إلى الطريق أمامه، ويركز في قيادة السيارة، دون أن يفضح وجهه ما يجول في داخله. وترددت السيارة فوق الأرض الرملية الناعمة، وكادت الإطارات تغرق فيها، فعمد «دارت» فورًا إلى زيادة السرعة؛ كي لا تدور الدواليب في مكانها. وتابعت السيارة طريقها. التوقف في منطقة كهذه يعني الموت البطيء. وعلى بعد أمتار قليلة رأت «كولبي» حيوان الكنغارو مستلقيًا بتكاسل في ظل بعض النباتات الصحراوية. رفع رأسه بفضول ليحدق إلى هؤلاء المتدخلين المزعجين الذين قطعوا عليه قيلولته. ضحك ركاب السيارة فخفت حدة التوتر داخلها. وكانت الشمس تركض أمامهم لتحول السماء إلى درع من النحاس الأصفر. ولم تتمالك «كولبي» نفسها من التفكير في المرأة التائهة في الصحراء. هل سيتمكنون من العثور عليها في الوقت المناسب؟

www.rewity.com

وسرت في جسمها قشعريرة خوف. أحس بها «دارت» فحوّل نظره لحظة عن الطريق ليطمئنها.

– كل شيء سيكون على ما يرام يا«كولبي». الرجل العجوز اجتاز مسافة كبيرة لينذرنا بما حدث. لا تخافي سنجدهما. وتمكنوا فعلا من العثور عليهما بعد ساعة واحدة. كان الرجل في أوائل العشرينيات، وجدوه هائمًا على وجهه، مرهقًا، وخائفًا. أما زوجته الشابة فكانت مستلقية على المقعد الخلفي لسيارتهما الصغيرة، وآثار الدموع ما زالت واضحة في الأخاديد الطويلة التي حفرتها على وجهها المغطى بالتراب. لم ينبس أحد بكلمة واحدة. لم يكن هناك ما يقولونه. بلّل «دارت» قطعة من القماش، وأخذ ينظف بها وجه ورقبة الرجل المستسلم له وكأنه طفل في الخامسة من عمره. أما «كولبي» فانصرفت للاعتناء بالسيدة الشابة، التي أخذت تبكي بمرارة وهي تهز رأسها بعصبية يمينًا ويسارًا. وعندما لم تنفع محاولات «كولبي» في تهدئتها قطع «دارت» الصمت ليقول بحزم:

– كفى. أنت بأمان الآن. حافظي على ما تبقى لك من قوة. وأخذ قطعة القماش المبللة من «كولبي»، ليكمل المهمة بصبر. حدقت المرأة التعبة إلى وجهه الأسمر الجذاب وفي عينيها تساؤل صامت. ابتسم لها، فتألقت أسنانه البيضاء لتضفي مزيدًا من الجاذبية على ملامحه البرنزية.

– هل تشعرين بأنك أحسن الآن؟ لم تترك عينا المرأة وجه «دارت» وهي تهز رأسها بالإيجاب. قائلة:

– حسنًا. وتناول كوب الشاي الذي أحضرته «كولبي» ليقربه ببطء من شفتي المرأة بعد أن أسند رأسها إلى ذراعه. وقال:

– اشربي هذا الآن. وعندما تشعرين بأنك قادرة على التحرك، سنعود بك وبزوجك إلى المزرعة. واسترق نظرة خاطفة إلى خاتم الزواج الذهبي في إصبعها، الذي تزينه ماسة كبيرة. وقال:

– اسمي «دارتلاند كينغ». أنا من «كنغارا». هذه ابنة عمي «كولبي». وهذا

«مايك فاراداي» رئيس العمال. وجال الزوجان بنظرهما من واحد إلى الآخر، وسارعت «كولبي» للاهتمام بالمرأة.

– سأعتني أنا بها الآن يا«دارت». نهض «دارت» وهو يهز رأسه إيجابًا. وعاد الصمت يخيّم على المكان. الوقت ليس مناسبًا الآن للأسئلة والقصص، سيتركونهما حتى يتمالك الزوجان أنفاسهما. كان «مايك» يتفحص السيارة الصغيرة وعلى وجهه شيء من عدم التصديق والشفقة، فاقترب منه «دارت»، فقال له:

– لن تصدق هذا يا«دارت». السيّارة فارغة من الماء والزيت. ولم يجلبا معهما مؤونة كافية من الوقود ومن مياه الشرب.

– هل هناك ما يكفي من الوقود للعودة بها إلى المنزل؟

– نعم. لكني سأحاول أولا تحرير الإطارات الغارقة في الرمل.

– حسنًا. سنتحرك فور انتهائك. الحمد لله أن سوءًا لم يحصل لهما. قليل من الخوف فقط. وعندما وصلوا أخيرًا إلى المنزل، كانت «بيللا» بانتظارهم. هي أيضًا لم توجّه سؤالا واحدًا بل قادت الزوجين إلى غرفة الضيوف المعدّة لاستقبالهما، وخيّم السكون على المنزل الكبير.

قدم العشاء في ساعة متأخرة من المساء، وروى الزوجان للمرة الأولى قصتهما، وكيف وصلا إلى هذه المنطقة النائية. كانا من «نيوزيلند». اقتصدا أشهرًا طويلة ليتمكنا أخيرًا من قضاء شهر العسل في قلب «أستراليا» الميت الذي يختلف تمامًا عن جزيرتهما الصغيرة بقساوته وصلابته. تجربتهما المرعبة أصبحت الآن مجرد ذكرى، فالعناية الساهرة التي أحيطا بها منذ قدومهما إلى المنزل الكبير، أنستهما مرارة الساعات الطويلة التي ذاقا فيها طعم الوحدة والخوف والضياع.

كانت السيدة «هاريسون» تتألق حيوية وهي تروي تفاصيل الرحلة المأساوية. فحتى الدقيقة التي جفت فيها الحياة تمامًا من محرّك السيارة، كانت السيدة الشابة تنظر إلى الأمر كله على أنه مغامرة مثيرة ستحكيها لاحقًا لصديقاتها.

احتواهما العالم الشاسع الجديد بصمته وقساوته، فوقعا تحت سيطرته حتى كاد يقضي عليهما.

– كانت تجربة غنية. وبدت السيدة «هاريسون» وكأنها تتوجه إلى «دارت» وحده. أما زوجها فكان ينظر إليها بحنان، وهو سعيد لأنها استردت حيويتها ومرحها. كان من الواضح أن العنصر الأهم في الرواية التي ستقصها «كاتي هاريسون» لصديقاتها، سيكون الفارس الأسمر الذي أنقذ حياتها. وهمس «مايك» في أذن «كولبي». قائلا:

– أعتقد أنها تغلبت على تعبها. أليس كذلك؟ بل أظن أن السيدة الشابة لن تمانع من تكرار المغامرة، في حال تأكدت أنها ستجد الرجل المناسب لإنقاذها. «دارت» رجل جذاب فعلا.

– لا أنكر ذلك. أحسّت بسحره يتغلغل في أعماقها طوال السهرة. أيّ امرأة تستطيع أن تقاوم كل هذه الجاذبية؟!

– يبدو أن «روشيل» غير سعيدة بعملية الإنقاذ هذه. لا تحب أن يشاركها أحد اهتمام «دارت». ورفعت «كولبي» رأسها إثر كلمات «مايك» لتتأكد ما يقول، فالتقت عيناها بعيني «دارت»، ورأت فيهما مرحًا مداعبًا وشيئًا من التحدي.

«بيللا» و«سوزان» كانتا مستغرقتين في حوار مع «جون هاريسون» حول اختلاف الأرض والطبيعة بين «أستراليا» و«نيوزيلند». وكان كل طرف يبدي إعجابه بأرض الطرف الآخر، مع التأكيد على تمسكه بأرضه أولا. وبعد تناول القهوة، ألقى «دارت» على آل «هاريسون» محاضرة طويلة عن مخاطر السفر في هذه الأرض المتوحشة، والصعوبات التي عليهما توقعها، وكيفية مجابهتها. فكثيرة هي القصص التي تُروى عن أناس قضوا حتفهم؛ لأنهم لم يحملوا مؤونة كافية من مياه الشرب، أو أفقدهم الخوف قدرتهم على التمييز. فالذي لم يألف المساحات الرملية الشاسعة يغلبه الخوف، والوحدة، والقلق. ورغم تحذيرات البوليس والسكان الأصليين يخاطر بعض السواح بترك

سيارتهم عندما ينفد منهم الماء، ويذهبون لطلب المساعدة سيرًا على الأقدام. وهنا تكون المأساة.

وبعد أن انتهى «دارت» من حديثه، نهض ليتصل بجهازه اللاسلكي، وسيلة الاتصال الشائعة في هذه المنطقة، بأصحاب المزرعة التالية ليوصيهم بالزائرين. وهم بدورهم سيتصلون بأصدقائهم لتسهيل رحلة آل «هاريسون». وهكذا سيكون دائمًا أحد ما في مكان ما يسهر على سلامتهما. وعندما سيصلان أخيرًا إلى بلادهما، سيصبح بإمكانهما إخبار أصدقائهما بأنهما اجتازا قلب «أستراليا» الميت دون خوف أو خطر.

وفي صباح اليوم التالي، وبعد أن تناولا طعام الفطور، ركب الزوجان سيارتهما المزودة بكل ما يمكن أن يحتاجا إليه من مؤونة، وودّعا الجميع. وقبل ثوان من تحركهما، أخرجت «كاتي هاريسون» رأسها من نافذة السيارة لتبتسم لمضيفها قائلة:

– هل تسمح لي؟ رنّ صوتها طفوليًا خجولا، فأحنى «دارت» رأسه مبتسمًا.

– طالما لا يمانع «جون»! فأسرع الزوج يقول مداعبًا:

– هيّا. كنت محظوظًا لأني وضعت خاتم الزواج حول إصبعها قبل أن تلتقي بك. قبّلت «كاتي هاريسون» خدّ «دارت»، واستلقت في مقعدها والدموع تملأ عينيها. شكرها للمعاملة الطيبة التي تلقتها، عبّرت عنه بالدموع بعدما عجزت الكلمات عن ذلك. وزودهما «دارت» بتعليماته الأخيرة، قبل أن يبتعد عن السيارة وهو يلوح لهما مودعًا. تنفست «روشيل» بارتياح.

– أخيرًا رحلا! هل رأيتم كيف تصرفت؟ كيف تسمح لنفسها بذلك وزوجها جالس بجانبها؟ فأجابتها «كولبي» ساخرة قبل أن تلحق بـ«سوزان» و«بيللا» إلى داخل المنزل.

– أليس من الأفضل أن تتصرف كذلك بوجوده بدلا من أن تنتظر غيابه؟ والتقت العائلة في غرفة الجلوس. جلس «دارت» قرب «روشيل»، وأخذ ينظر إلى «كولبي» التي كانت منشغلة عنه بالضحك و«ستيفن». وهمست «روشيل»

بصوت محمل بالمعاني الخفية.

– إنهما يتفقان كثيرًا على الرغم من قصر المدة التي مرّت على تعارفهما. أعتقد أنه التقارب في السن. وسمعها «ستيفن» على الرغم من استغراقه في الحديث، فلم يتمالك نفسه من التعليق بسخرية.

– كلماتك هذه تدل على قلب طيب يا آنسة «تينانت». وعاد يركّز اهتمامه في «كولبي».

– أنا معجب بالطريقة التي اعتنيت بها بالسيدة «هاريسون» يا«كولبي». هل تعرفين أني كنت أحلم بأن أصبح طبيبًا في يوم من الأيام لكن الظروف لم تسمح بذلك؟ واستغلت «روشيل» هذه العبارة لتنتقم من سخرية «ستيفن» السابقة بها.

– حسنًا فعلت. عودتك عن قرارك أنقذت حياة الكثيرين.

– «روشيل»، «روشيل». أظهري قليلا من الاحترام للناس. لن تجدي زوجًا بهذه الطريقة. وعضّت «روشيل» على شفتها السفلى وهي تحترق غيظًا. وأنقذ الموقف دخول «ميني» المفاجئ وهي تحمل باقة من الزهور الصفراء وضعتها في إناء جميل. وكان من الممكن أن يمرّ دخولها هذه المرة على خير، لولا أن لاحظت «روشيل» تسرّب بعض قطرات الماء من أسفل الإناء، فصرخت قائلة:

– لا تضعيه على المائدة. ستفسدينها. أرادت أن تحمي ما تعتقد أنه سيكون لها مستقبلا. صوتها الآمر أخاف «ميني»، فأسقطت الإناء من يديها كما توقعت «كولبي» وتناثر الزجاج المحطم على السجادة. أسرعت «كولبي» إلى «ميني» تهدئ روعها.

– عودي إلى المطبخ يا «ميني». لا تخافي لن يغضب أحد منك. لم تكن غلطتك. وخرجت الفتاة الصغيرة ترتعش خوفًا وهي تسمع «روشيل» تقول بغضب:

– لا أعرف لماذا لا تتخلصون من هذه الفتاة الطائشة. إنها خطر متحرّك. ولم يجبها أحد. انحنت «كولبي» تجمع الزهور الصفراء عن الأرض. وفجأة

تأوهت بصوت خافت، وسالت الدماء من قدمها. داست على قطعة زجاج كبيرة اخترقت إحدى فتحات حذائها الصيفي. وأسرع إليها «دارت» بعدما لاحظ شحوب لونها. كان يغمى عليها دائمًا عند مشاهدة الدم وهي طفلة. رفعها بين ذراعيه بينما كان «ستيفن» يربط الجرح بمنديله النظيف. وحاول أن يهدئ روعها.

– آل «كينغ» كلهم شجعان.

– قلت لك سابقًا إن لكل قاعدة استثناء. ردّدتها بضعف وهي تشعر بالأشياء تتمايل حولها. وحاولت السيطرة على نفسها. لماذا تتصرف بهذا السخف؟! سألتها «روشيل» وفي عينيها تأنيب واضح:

– هل تتصرفين دائمًا بهذا السوء لدى رؤية الدم؟ هزّت «كولبي» رأسها بضعف واستراحت على كتف «دارت» قائلة:

– نعم.

– لا تتصرفي كطفلة يا«كولبي». سأنظف الجرح. هل تستطيعين تحمل ذلك؟ أجلسها على المقعد وذهب ليحضر بعض الإسعافات الأولية من غرفة الحمام. نظرت «كولبي» إلى منديل «ستيفن» المخضّب بالدم، وأرغمت نفسها على التصرف كإنسان بالغ. لم تعد طفلة. وعليها ألا تجعل مخاوف طفولتها تتغلب عليها. عضت على شفتها، وحاولت التفكير في أمر يسعدها. وعندما عاد «دارت» عرضت عليه «روشيل» أن تساعده بتضميد الجرح، فرفض مبتسمًا. عقدت حاجبيها استياء وانصرفت عنهما غاضبة. إنها لن تحب «كولبي» هذه أبدًا. يا لها من طفلة مدللة! وبدأ «دارت» بتنظيف الجرح. كان عميقًا لكنه تمكن من وقف النزيف. ومن ثم ضمّد قدم «كولبي» بعد أن تأكد عدم وجود أي بقايا زجاج. شكرته «كولبي» معتذرة:

– آسفة لم أتوقع حدوث هذا.

– على المرء أن يتحمل حدوث هذا. وضحك مداعبًا. وفجأة انحنى عليها ليقبل وجنتها فأحسّت «كولبي» بسعادة لم تعرفها من قبل.

– لماذا فعلت ذلك؟ فأجابها ساخرًا كعادته:

– ظننت أني ربما سأفقدك. ولم تستطع «روشيل» البعاد عنهما وهي ترى عن بعد المودة السائدة بينهما. وقالت لـ«دارت»:

– عزيزي «دارت». ألا تعتقد أنه من الأفضل ألا ترافقنا «كولبي» في نزهة بعد الظهر؟ لا أظن أنها تستطيع تحمل الرحلة.

– لن يمنعني أي شيء من مرافقتكما. ونهضت فورًا لتثبت قولها. فضحك «دارت».

– فتاة شجاعة فعلا! ارتاحي الآن. عليّ أولا أن أنجز بعض الأمور. ووضع يده على كتف «روشيل».

– «روشيل» أنت تعرفين ما سنحتاج إليه لهذه الرحلة. على فكرة. اتصلي بوالدك وأخبريه بأنك ستمددين إقامتك ليومين أو أكثر. وأشرق وجه «روشيل» أما «كولبي» فاضطربت وخرجت مسرعة إلى الشرفة لتداري انفعالها. الألم لم تعد تشعر به في قدمها وحسب بل أيضا في قلبها. لكنها لن تحاول أن تحلل مشاعرها الآن.

– 6 –

فاجأهم المغيب وهم يشقون طريقهم إلى التلال الرملية. «دارت» و«روشيل» في المقدمة، «سوزان» و«مايك» في الصف الثاني، وأخيرًا «كولبي» و«ستيفن» يتحدثان ويضحكان بصوت عالٍ. وأشار إليهم «دارت» بالتوقف.

– أين تريدون نصب الخيام لقضاء الليلة؟ على التلال أم في الوادي؟ وأجابت «روشيل» و«سوزان» بصوت واحد:

– على التلال. التفت «دارت» إلى «كولبي». وقال:

– الوادي. أليس كذلك؟ كان يعرف تمامًا مكانها المفضل. لكنها لم تشأ أن تفرض خيارها على الآخرين.

– أيّ مكان يرضيني يا«دارت». أترك الخيار لك.

– سنخيم في الوادي إذن. وضحكت «روشيل» لتخفي استياءها الواضح من اهتمام «دارت» برغبات ابنة عمه.

– حسنًا. سنذهب إلى الوادي. وبعد عشرين دقيقة كانوا يضربون خيامهم قرب الينبوع الصغير في وسط الوادي. وانصرفت الفتيات إلى إعداد أماكن النوم، ونصب الخيام. أما «دارت» و«مايك» فأخذا يجمعان الأغصان اليابسة لإشعال نيران المخيم. وبعد فترة تحلقوا حول النيران يتنشقون رائحة الشواء الذي أعده «ستيفن» بسرعة، حتى يسكت صراخ معدته المتقلصة جوعًا.

تناولوا طعامهم بصمت وكأنهم لا يريدون تعكير سكون هذه الليلة الحالمة. أحسوا براحة عميقة تتسلل إلى كيانهم، فيها مزيج من الخشوع والسعادة. وفجأة انطلق صوت «كولبي» يغرد بحنين أغنية وطنية تعلمتها في طفولتها. شدهم صوتها الملائكي الرخيم فأصغوا باهتمام إلى لحن الحب الذي تنشده للطبيعة والخير والجمال. وعندما اختفت آخر نغمة في عتمة الليل، صفق الجميع استحسانًا. حتى «روشيل» عبّرت عن إعجابها بحماس مفاجئ. ونظر «دارت» إلى ابنة عمه بفخر وحنان. كم تبدو رقيقة وجميلة! لا! لن يضعف. والتفت إلى «روشيل»:

– ما رأيك في نزهة قصيرة؟

– طبعًا يا«دارت». بكل سرور. وابتعدا ببطء وهما يتسامران همسًا. أخفت «كولبي» ألمها بابتسامة باهتة وانتهز «مايك» فرصة جلوسها بمفردها ليقترب منها.

– صوتك رائع يا«كولبي». كل شيء فيك رائع.

– هل تستعمل هذا الأسلوب دائمًا للتقرب من الفتيات يا«مايك»؟ وسامتك وحدها كفيلة بذلك! وأحسّت فجأة بجسم ليّن يصطدم بوجهها، ويطير هاربًا. إنه وطواط ليلي. ارتعدت «كولبي» خوفًا واشمئزازًا وأمسكت بذراع «مايك» بحركة لا شعورية.

– يا إلهي! لم يكن ينقصني إلا هذا!

– وأنا أيضًا لم يكن ينقصني إلا هذا! وانحنى «مايك» يقبّلها في شعرها وجبينها. وقبل أن تنطق «كولبي» بكلمة واحدة، انصرف عنها عندما سمع «سوزان» تناديه لمساعدتها في أمر ما. عضت «كولبي» على شفتها وهي تراه يبتعد عنها بسرعة. كيف سمح لنفسه بتقبيلها؟ وأحسّت بوجود شخص ما وراءها. فالتفتت لترى «دارت» يحدق إليها بقساوة. فقالت له:

– ما بك هذه المرة يا«دارت»؟ يبدو أني لن أستطيع أبدًا الفوز برضاك مهما فعلت! ولم يحاول «دارت» السيطرة على غضبه، بل أجابها بحدة:

– العمل في هذه المنطقة قاسٍ جدًا، ومن الصعب العثور على عمال أكفاء يرضون العمل في ظل هذه الظروف القاسية. ومن المستحيل إيجاد شخص بمهارة «مايك».

– لا أفهم، ماذا تقصد؟ وقبض على معصمها بعنف، فكادت تصرخ ألمًا.

– دعني يا«دارت». أنت تؤلمني.

– لا تتحديني يا«كولبي». أنت فتاة جذابة، وأنا لا أريد أن أخسر «مايك». أنا أحتاج إليه.

– لكنك لا تحتاج إليّ. لو فرضت عليك الظروف أن تختار أحدنا، سأكون أنا من يرحل. أليس كذلك؟

– بل أتمنى أن أحتفظ بكما معًا.

– لم أكن أعلم أنك تربط صداقاتك بمصالحك الخاصة.

– يكفي يا«كولبي». تعرفين جيدًا ما الذي أتوقعه منك. فلننس الأمر الآن. كان النهار متعبًا.

– طبعًا. أنت تأمر ونحن ننفذ... لا أتصور كيف أحببتك في يوم من الأيام!

– وما زلت تحبينني يا بنت عمي الصغيرة.

– الدم لا يمكن أن يتحول إلى ماء يابن العم الكبير.

– هل هذا هو السبب الوحيد؟ رفضت الإجابة، وأشاحت عنه بوجهها.

– اذهبي إلى خيمتك الآن. حان وقت النوم. ولم يكد المخيم يسكن حتى أفاق

الجميع على هدير صاخب يقترب منهم بالتدريج. وضجت الأرض بإيقاع بدائي، بري، وسريع. أصغوا جيدًا وما لبثوا أن شاهدوا قطيعًا من الخيول البرية يسابق الريح باعتداد وعنفوان من لم يعرف القيود في حياته. وتوقف القطيع قرب الينبوع يروي عطشه. وخرج القمر من وراء سحابة عابرة، ليغرق قائد القطيع بضوئه الدافئ، فشهقت «كولبي» وهي ترى الحصان الأبيض يتألق كتمثال فضي نحتته يد فنان رمزًا للأصالة، والقوة، والجمال.

– آه يا«دارت». كم يبدو هذا الحصان خياليًا في ضوء القمر، وكأنه جزء من حلم بعيد لا يتحقق فعلا إلا في الأساطير!

– أخفضي صوتك يا«كولبي». لحظة واحدة وسيشعر بوجودنا. ولم يكد «دارت» يكمل عبارته، حتى رفع الحصان رأسه يصهل عاليًا لتحذير أتباعه من خطر قريب. رائحة الإنسان والنار يعرفها جيدًا، وحاسة الشم لديه لا تخطئ. وبجرأة وكبرياء انطلق عائدًا إلى التلال ووراءه القطيع يضرب الأرض بقوائمه، حتى ارتعدت خوفًا من غضبه. انتهى الحلم، وعادوا إلى فراشهم. استيقظت «كولبي» مع بزوغ الفجر. تثاءبت براحة والتفتت إلى خيمة «دارت». كانت فارغة. لابد من أنه ذهب للبحث عن الحصان الأبيض. تعرفه جيدًا. لن يترك جوادًا بهذا العنفوان يفلت من قبضته. تسللت من مكانها بهدوء حتى لا ينتبه الآخرون. امتطت فرسها «سورشا» وانطلقت بها إلى التلال بحثًا عن «دارت». لن تجد صعوبة في العثور عليه. «بن» العجوز علمها كيف تقتفي الأثر جيدًا في الأرض الندية الحمراء. ورأت «كولبي» ضرورة لجم فرسها عندما وصلت إلى ممرّ ضيق يتعرج بين صفّين من النباتات الكثيفة. وأحست فجأة بشخص ما يرفعها بقوة عن صهوة جوادها ليضعها أرضًا. ثم قال لها:

– يا إلهي! يا«كولبي»، ألا تستطيعين أبدًا مقاومة رغبة تعريض نفسك للخطر؟ تعمدت ذلك. المرأة قد تفعل الكثير للرجل الذي تحب، لكنها تفعل أكثر للرجل الذي تخاف.

– آسفة. لم أكن أقصد إزعاجك. وعندما رفعت عينيها معتذرة إلى وجهه

الأسمر الجذاب، صرخ صوت ما في داخلها «أنت تحبين «دارت». أنت تحبين «دارت»».

– لا. لم تزعجيني يا«كولبي». أنا خائف على سلامتك. ما زلت طفلة صغيرة.

– وأنت رجل متعجرف. أنا لم أطلب المجيء إلى «كنغارا». أنت من أصر على ذلك. لكني أستطيع مغادرتها في أية لحظة.

– وهل تريدين ذلك؟ لم تجبه، فضغط على كتفها بعنف.

– ستبقين هنا إلى الأبد يا صغيرتي. أنت جزء من «كنغارا» وهي جزء منك. لن تستطيعي مغادرتها أبدًا.

– قد لا توافق «روشيل» على بقائي. قالتها بعفوية، وندمت فورًا على الملاحظة التي أفلتت منها. لكن «دارت» كان قد انشغل عنها فور سماعه الإيقاع البري الذي أخذ يتردد صداه في الهواء.

– «كولبي» لديّ فكرة جيدة قد تنجح. سأستخدم فرسك كطعم، إنها حيوان جميل ولا بد من أن تلفت اهتمام الحصان الأبيض. وابتسم لها مداعبًا. وأضاف:

– على الرغم من كل شيء، أثمر حضورك عن فائدة ما.

– أتمنى ذلك يا«دارت».

– ابقي هنا وابتعدي عن المشاكل. هل فهمت؟

– نعم. أرجوك يا«دارت» كن حذرًا. امتطى «دارت» صهوة جواده الأسود وانتظر دون حراك اقتراب القطيع. وكما توقع الرجل لفتت «سورشا» الجميلة انتباه الحصان الأبيض فحول مساره باتجاهها. وقبل أن يصبح قريبًا بما فيه الكفاية ليشتم رائحة الإنسان، خرج «دارت» من مخبئه كالسهم وهو يلوح بالحبل الذي لا يخلو منه سرج أي راعي بقر. ودخل حصان «دارت» المعركة إلى جانب سيده، فانطلق يسابق الريح وهو يصهل متحديًا منافسه. وتمكن الفارس من تطويق عنق الجواد البري برمي الحبل مرة واحدة. وما إن شعر الحصان الأبيض بالقيد حتى تفجرت كل وحشيته البدائية. وقف على

قائمتيه الخلفيتين يضرب الهواء بقائمتيه الأماميتين محاولا استرداد حريته. وتساقط الزبد من فمه وهو يصهل، فكان في صوته صرخة ألم رددتها التلال الرملية. واقترب منه «دارت» بالتدريج وهو يشد على الحبل بقوة حتى سقط القائد الأبيض على جانبه مبللا بالعرق، ومشلولا بالخوف. وبعد ثوان انتفض الحيوان الأسير رافضًا الاستسلام بسهولة. وظل «دارت» ممسكًا بالحبل وهو يقترب أكثر فأكثر من الجواد الثائر. إنها معركة خطرة. ضربة واحدة من حوافر الحصان قد تقتله أو تشله مدى الحياة. وانطلق الحيوان الأبيض في سباق مجنون، والشرر يتطاير من عينيه. وطار «دارت» في أثره، ممسكًا بالحبل،وهو يشجع جواده على قبول التحدي الذي اختاره منافسه. السباق هذا سيحدد نتيجة المعركة. والخاسر سيكون من يتعب أولا. فانتصرت إرادة الرجل.

- 7 -

مدّدت «روشيل» إقامتها بضعة أيام؛ لتتابع محاولات «دارت» ترويض الحصان الأبيض، أو تحطيمه كما كانت تقول. ولم يكن «دارت» يحب استخدام كلمة تحطيم بل كان يستعمل دائمًا كلمتي تدريب أو تعليم الحصان أصول التعامل مع رغبة الإنسان.

وفي اليومين التاليين، توافد كل سكان المزرعة لمشاهدة المواجهة العنيفة بين الحيوان المعتد بحريته والرجل المعتز بإرادته. سور الحظيرة لم يكن ليخلو في أي ساعة من ساعات النهار من المتفرجين. بعضهم قطع كيلومترات عدة ليكون هناك في اللحظة التي سيمتطي فيها الرئيس الحصان للمرة الأولى. وضع العمال سرجًا على ظهر الجواد الذي وقف يزمجر غضبًا بعدما غطّى «بن» رأسه بكيس كبير ليمنع عنه الرؤية. قوائمه الأربع كانت ترتجف بعصبية تنذر بأن العاصفة التي تتفاعل في داخله لابد من أن تنفجر في الدقائق المقبلة.

ابتعد «دارت» عن السور حيث كان يتحدث بهدوء مع «مايك»، وبحركة سريعة ورشيقة قفز على ظهر الجواد الذي تشنج قليلا استعدادًا للمعركة. وأمسك الجميع أنفاسهم. لم يتحرك منهم أحد. ولدقيقة طويلة أخذ «دارت» يتلمس عضلات الحيوان فأحسها ترتعش بعنف. أومأ برأسه إلى «بن»، فأسرع العجوز يرفع الكيس عن رأس الحصان الذي وقف لثوان معدودة بعدما أعمته أشعة الشمس. لكنه ما لبث أن ثار لكرامته المجروحة فأخذ يركض بجنون ويرفس بعنف ليسقط أول رجل تجرأ وامتطى صهوته. أخذوا يراقبونه يتلوى بثورة وهو يحاول أن يعض قدم «دارت» الذي كان يشد على اللجام ليبقي رأس الجواد عاليًا. وحاول الحيوان الذي لم ينسَ طعم الحرية بعد، أن يتمرد على إرادة الرجل الذي يحاول ترويضه وإرغامه على الاستسلام. كيف يرضى بالسجن والعبودية؟! هو الذي كان يترأس قبل أيام قليلة قطيعًا من الخيول البرية، يقوده عبر التلال فاتحًا صدره للهواء الطلق وأشعة الشمس. شعلة الحرية ما زالت تحترق في عينيه الغاضبتين، ولن يتخلى عنها بسهولة.

ظلّ الحصان يركض في الحظيرة خائفًا، غاضبًا وقد غطى الغبار الأحمر تاجه الفضي. تصاعد الغبار غيومًا حمراء في الهواء. وعلق بأنوف كل الذين كانوا يتحلقون حول السور. لكن أحدًا منهم لم يتحرك من مكانه. ويبدو أن أحدًا منهم لم يكن حتى يبالي بالغبار. الإثارة كانت تتألق على كل الوجوه. وتعالت أصوات المواطنين الأصليين العالية النبرة تشجع الرئيس وتؤيده في معركته.

الفتيات ربطن مناديلهن الملونة حول وجوههن، ماعدا «كولبي» التي سقط منديلها عن وجهها فلم تقم بحركة واحدة لإعادته. كانت مستغرقة تمامًا في التحدي القائم بين الرجل والحصان. «دارت» من أمهر الفرسان فعلا. يتوقع ردة فعل الحصان حتى قبل أن يقوم بها. مرونته، ورشاقته، وصلابته لا يمكن أن يضاهيها أمهر الفرسان المعروفين بقدرتهم على ترويض أكثر الجياد تمردًا.

كان «دارت» يجلس مستقيمًا على سرجه، وهو يحاول أن يرغم الحصان

المتعب على القيام بحركات أسرع، ترهقه وتجبره على الاستسلام. وفعلا خفف الجواد من رفساته القوية التي يمكن أن تقضي إحداها بسهولة على حياة أي رجل يستخف بها. وبالتدريج هدأ فأخذ «دارت» يتحدث إليه بهدوء وحنان وهو يربت عنقه المبلل بالعرق. وانتهت المعركة. اقتربت «روشيل» من السور فور نزول «دارت» عن جواده. كان وجهها الأسمر الجذاب يشعّ إعجابًا. فقالت له:

- كنت رائعًا يا«دارت». وقف ينظر إليها بشرود، ووجهه الوسيم لا يعبر عن شيء.

- لا أحب هذا العمل يا«روشيل». لكنه ضروري. ورأت «كولبي» «روشيل» تلف ذراعها حول ذراع «دارت»، فأشاحت بوجهها وهي تحاول أن تكبت هذا الإحساس المفاجئ والغريب الذي انتابها وجعلها تشعر بمزيج من الغضب والحزن. وسمعت ضحكات «روشيل» ترن على بعد أمتار قليلة منها، فقررت أن تتجاهل الأمر. «بيللا» تنتظرها في المنزل. من الأفضل أن تركز أفكارها حاليًا في العمل. في الصباح طلبت منها عمتها أن ترسل برقية تهنئة لإحدى قريباتها في مدينة «اديلاييد»، وذلك بمناسبة عيد ميلادها.

اغتسلت «كولبي» من الغبار العالق بها، قبل أن تذهب إلى المكتب الصغير حيث وُضع جهاز الإرسال. كانت الغرفة صغيرة مليئة بخرائط كبيرة تمثل منطقة القناة، ومقاطعة «كوينزلاند»، وجنوب «أستراليا»، والمناطق الشمالية. الجدران كانت غارقة في سيل من الرماح واللوحات البدائية. ووراء المكتب الكبير تدلى جلد تمساح انعكس عليه ضوء النهار المتسلل من النافذة العريضة. ابتسمت «كولبي» بحنين وهي تحدق إلى جلد الحيوان الميت. اصطاده «دارت» في مزرعة عمه، الواقعة في المناطق الشمالية. اصطاده في الثانية عشرة من العمر، وأصرّ العم «سيروس» على إرجاع الجلد معه إلى «كنغارا». وفور وصوله إلى البيت الكبير استغل الحيوان الميت؛ ليدبر لرئيس عماله مقلبًا يشهده كل من في المزرعة.

وفي إحدى الأمسيات، وبينما كان رئيس العمال عائدًا إلى منزله من سهرة متأخرة، رأى الرجل أمام بابه تمساحًا يتربص به. أصابه الهلع وكاد يمطر الجلد بوابل من الرصاص لولا تدخل بعض العمال الذين وضعهم «سيروس كينغ» هناك لمراقبة المشهد المضحك. وعندما هدأ رئيس العمال أخيرًا أكد أن هذه الحادثة سرقت من عمره عشر سنوات. وضحكت «كولبي»، كما كانت تفعل دائمًا كلما وقع نظرها على الجلد. سكان المزرعة ما يزالون يتندرون حتى اليوم بالمقلب. واجتازت «كولبي» الغرفة لتجلس أمام جهاز الإرسال. وعندما وضعته على الموجة التي تريد، سمعت صوت رجل يقول:

– إذا لم يكن هناك من نداء طبي، اتركوا المجال للرسائل الآتية من مزارع «ر. ج. ب»، و«ف. ج. ك»، و«ي. ل. م»، و«ك. ج. ر». فأجابه صوت امرأة:

– هيا يا«جيم». وعرفت «كولبي» صوت «نولا ريتشموند» جارتهم من مزرعة «ريتشموند» التي يُشار إليها بأحرف «ر. ج. ب» وقرأ الرجل برقية حب طويلة وصلتها من زوجها الموجود حاليًا في «أديلايد» في رحلة عمل. حاولت «كولبي» ألا تسمع الكلمات. من المضحك حقًا، أن تشعر في هذه المناطق النائية بأنك أقرب إلى جارك الذي تفصله عنك مئات الكيلومترات، مما لو كنت تجاوره في شقة في المدينة. ومرّت ساعات الصباح بسرعة، و«كولبي» تستمع إلى مشاكل المزارع الكبيرة المتفرقة في هذه المنطقة الشاسعة. رؤساء عمال يطلبون موافقة رؤسائهم الغائبين على أمر ما، أمهات يرسلن برقيات حزينة يطلبن فيها من بناتهن العودة إلى المنزل بعد إجازة طالت في المدينة، ومشاكل عائلية تحلّ على الهواء. وتخلل كل هذه الرسائل نداء طبي من أم تستنجد بالطبيب المتجول لمعالجة طفلها المريض. وتنبّهت «كولبي» فور سماعها لإشارة «كنغارا»، أي أحرف «ك. ج. ر». أرسلت البرقية التي تريد، وأقفلت الجهاز. وقفت ونظرت حولها باهتمام قبل أن تتوجه إلى مكتب «دارت»، المجاور لغرفة الإرسال. حرّم ابن عمها دخول مملكته الخاصة هذه على كل أفراد

العائلة، ولم يستثنِ «روشيل» من القاعدة. وكم تشبهه هذه الغرفة! ينبع منها انطباع بالقوة. كان من الواضح أنها تخص رجلا. على أحد الجدران، كان هناك رسم زيتي كبير للعم «سيروس»، يحمل بصمات وشخصية الفنان الذي رسم العمة «راشيل»، أي صاحب اللوحة المعلقة في غرفة الجلوس. وتسلقت عينا «كولبي» القامة الطويلة البارزة العضلات. كان العم «سيروس» شديد الوسامة، في عينيه وفمه تعبير ينمّ عن شيء من القسوة والتسلط. وجهه يدل على إنسان أنشأ لنفسه إمبراطورية صغيرة في منطقة نائية... رجل عرف كيف يجري الصفقات وينفذها. العم «سيروس» يشبه والدها، لكن تعبير الوجه كان يختلف تمامًا. كان والدها أكثر رقة وحنانًا.

في يوم من الأيام سيعلق رسم «دارت» هنا أيضًا. لكن أين سيضعون رسم «روشيل»؟ ما من شك في أنها الزوجة المناسبة لرجل من آل «كينغ». ارتعشت «كولبي» على الرغم من حرارة الغرفة. «دارت» أيضًا سيكون زوجًا ممتازًا. وسامته الجذابة، التي توحي بالكثير من الرجولية، اكتسبها عن عائلة والدته. لكن طابع آل«كينغ» المميز كان واضحًا في شخصيته وتصرفاته. لكن ماذا عن «روشيل»؟ تنبّأ لـ«روشيل». لاحظت أنها كانت تتكلم بصوت عالٍ ضحكت لانفعالها وخرجت من الغرفة على رؤوس أصابعها تلاحقها نظرات العم «سيروس». في الرواق دقت الساعة تشير إلى الحادية عشرة. ما زال أمامها ما يكفي من الوقت لتلحق بـ«دارت» و«بن». كانا يعملان في الحظائر على ترويض ما تبقى من الخيول البرية. رآها «دارت» مقبلة، فاقترب لملاقاتها.

– «بن» اختار الفرس الصغيرة لـ«بوكا». إنها حيوان أصيل. العجوز يعرف كيف يختار الجواد الأصيل. لا أحد يضاهيه في هذا المجال.

– ولا حتى «دارتلاند كينغ» العظيم؟ كنت أعتقد أن لك شهرة واسعة في هذا المجال. ابتسم لها، وأخذ يتابع محاولات «بن» لترويض الفرس الصغيرة. والتفت فجأة إلى «كولبي» ليسألها باهتمام:

– كنت أول من غادر الحظيرة هذا الصباح. ألم تعجبك الطريقة التي روضت

بها الحصان الأبيض؟ أراد مداعبتها، لكنها أجابته بجدية لم يكن ليتوقعها منها:

– لا أعرف، يحزنني حقًا رؤية أي شخص يحاول تحطيم حرية كائن حي. لمعت عيناه كقطعتي فضة وهو يحاول أن ينفي التهمة عنه.

– لم أحاول تحطيمها. أنا لا أحطّم الخيول. أنا... قاطعته «كولبي» ساخرة، وهي تحاول أن تقلّد طريقته في الكلام:

– أعرف يا سيد «دارت». تريد تدريبها على أصول التعامل مع الإنسان. وأنت ماهر يا سيد «دارت».

– أعتقد يا آنسة «كينغ» أنك أنت أيضًا تحتاجين إلى من يعلمك أصول التعامل مع الناس.

– أكون شاكرة لك لو قمت أنت بهذه المهمة يا أستاذ «دارت». وكاد الحوار يتحوّل إلى مشادّة عنيفة، لولا اقتراب «بن» الذي رفع قبعته ليحيّي «كولبي» بابتسامة عريضة.

– صباح الخير آنسة «كولبي». والتفت إلى «دارت» يسأله بجدية:

– هل أنت مشغول يا سيدي؟

– لا يا «بن»، ما بك؟

– أحتاج إلى مساعدتك، لا أستطيع السيطرة على الفرس. يبدو أنها حديدية الإرادة.

– حسنًا يا «بن». علينا أولا محاصرتها في زاوية محددة. «كولبي» انزلي عن السور، وابتعدي قليلاً عن الحظيرة. وأحسّت «كولبي» بشخص ما يقف وراءها.

– أهلا يا «بوكا». جئت لترى فرسك. أليس كذلك؟ أجابت عينا «بوكا» حتى قبل أن يتفوّه بكلمة واحدة.

– نعم. كم هي جميلة... فرسي! والتفت إليه جدّه محذرًا.

– لا تقترب من الحظيرة يا صغيري. أرجوك أن تبقى قرب الآنسة «كولبي».

إنها ليست فرسك بعد. وأمسك «بوكا» بيد «كولبي»، وعيناه لا تفارقان الفرس السوداء.

تمكن الرجلان من محاصرة الفرس في إحدى الزوايا، لكن قبل أن يتمكن «بن» من رمي الحبل حول عنقها، ركضت نحو السور تحاول تحطيمه بقوائمها. ورمى «دارت» حبله بدقة فأحاطت العقدة العريضة في آخره بعنقها. أسرع «بن» لمساعدته في شد الحبل. وسقطت الفرس الغاضبة بثقل على جانبها تئن لهزيمتها. ظل «بن» ممسكًا بالحبل، بينما اقترب «دارت» منها وهو يتكلم ببطء وهدوء ليطمئن الفرس الخائفة. نظرت إليه بهلع، فمدّ يده يربت ظهرها بحنان حتى هدأت بالتدريج.

– هل انتهى الأمر؟ كان «بوكا» قد أغلق عينيه حتى لا يشاهد عذاب الفرس.

– نعم يا «بوكا». افتح عينيك. كل شيء على ما يرام الآن. واقترب منهما «دارت».

– تعالَ يا «بوكا». ألا تريد أن تعرف فرسك الجديدة؟ وانطلق «بوكا» في رقصة بدائية، يعبر بها عما عجزت الكلمات عن التعبير عنه. ولم يتوقف الصغير عن رقصه حتى سمع صوت جده الآمر.

– اهدأ يا صغيري، اهدأ! متى تكف عن استعمال الطريقة الصاخبة للتعبير عن فرحك؟ وهدأ «بوكا» فورًا. وبخفة تسلل إلى فرسه ليراقبها بمزيج من الحب والشعور بالملكية.

– فرسي. أنت لي... لي وحدي. ابتسمت «كولبي» لحماسه، وراقبته لبضع دقائق قبل أن تعود إلى المنزل. عليها أن تنجز ما تبقى عليها من مهام قبل موعد الغداء. لازمت «بيللا» غرفتها؛ لأنها كانت تشعر بصداع قوي. ولذا تناولت الفتيات طعام الغداء بمفردهن في الشرفة. أمضت «روشيل» و«سوزان» معظم ساعات الصباح تتنزهان في أحضان الطبيعة. ابتسامة «سوزان» الرائعة شملت هذه المرة «كولبي» أيضًا.

www.rewity.com

– كنت أتمنى لو رافقتنا في هذه النزهة يا«كولبي». كان الصباح رائعًا. ماذا فعلت كل هذا الوقت؟

– كنت مع «دارت» و«بن» في الحظائر. اختار «بن» فرسًا سوداء رائعة لـ«بوكا». كم كان سعيدًا بها! وقطبت «روشيل» حاجبيها استياء.

– ماذا؟! فرس لـ«بوكا»! ستفسدون هذا الصبي بمعاملتكم الطيبة له. لن يعرف حدوده بعد الآن. على «دارت» أن يكون أكثر قسوة معه. إنه مجرد صبي من السكان الأصليين. قاطعتها «كولبي» بغضب:

– «بوكا» سيصبح قريبًا من أمهر رعاة البقر، تمامًا كجده. من صالح «دارت» أن يبدأ باكرًا. كنت أصغر من «بوكا» عندما حصلت على جوادي الأول. ولم تحاول «روشيل» إخفاء نفورها.

– العائلة كانت طيبة في معاملتها لك أيضًا، وما زالت حتى الآن. استاءت «سوزان» من هذا الهجوم الواضح على قريبتها، لم تسمع «روشيل» تتكلم بمثل هذه العدوانية من قبل.

– «كولبي» تبقى في كل الأحوال ابنة عم «دارت». ترعرعت على أرض «كنغارا» قبل مجيء أي واحد منا. و«دارت» يحبها كثيرًا. وضعت «كولبي» فنجان القهوة بحذر على الطاولة، واستأذنت بالانصراف.

– سأذهب لأغسل شعري من الغبار الذي علق به في الحظائر. وفوجئت «كولبي» عندما استوقفتها «سوزان».

– تعالي معنا يا«كولبي». «مايك» وعدنا بزيارة الوادي إنه ينتظرك.

– شكرًا يا«سوزان». أعتقد أنكما ستستمتعان بالرحلة أكثر دوني. وغادرت المكان تاركة وراءها صمتًا ثقيلا، قطعته «روشيل» بعد لحظات.

– لا تقولي إنك وقعت تحت تأثير الاعيب الآنسة «كولبي كينغ» يا«سوزان»؟ كنت أظنك أذكى من ذلك!

– لا أفهم، ماذا تقصدين يا«روشيل»؟ وتفحصت «سوزان» صديقتها بعبوس، ثم شغلت نفسها بإبريق القهوة.

– لا تفسدي هذا النهار الرائع يا«روشيل». كنت قاسية مع «كولبي». عندما تتعرفين إليها أكثر ستجدينها في غاية اللطف. قطبت «روشيل» حاجبيها قبل أن تجيب:

– أنا أنضج منك، يا عزيزتي «سوزان»، ولي خبرة أوسع بالناس والحياة. «كولبي» فتاة موارية ستكتشفينها مع الأيام. اسمعي نصيحتي يا صغيرتي وابتعدي عنها. وبلعت «سوزان» ريقها بصعوبة. لا ترغب في مجادلة «روشيل»، أعز صديقاتها ستنسى الموضوع. لابد من أن تغير «روشيل» رأيها قريبًا. وقدمت «سوزان» لصديقتها فنجانًا من القهوة فتناولته مبتسمة.

– شكرًا يا«سوزان». نستطيع الآن أن نتناول قهوتنا بسلام.

كادت «كولبي» تصطدم بـ«روشيل» وهي تنزل درجات المنزل جريًا. ولاحظت «روشيل» أن «كولبي» ترتدي ثياب الفروسية. أرادت أن تقول شيئًا، لكنها غيّرت رأيها فجأة، فمرّت بصمت أمام «كولبي» وذهبت لتجلس في الشرفة. وعضّت «كولبي» على شفتها السفلى. آه لو تعود «روشيل» إلى منزلها! من المستحيل الشعور بالأمان والراحة وهذه الفتاة تسكن معها تحت سقف واحد. وأخرجها من شرودها صوت «روشيل» البارد.

– هل أنت ذاهبة إلى الحظائر يا«كولبي»؟ توقفت «كولبي» وهي تظلل عينيها بيديها لتقيهما لهيب الشمس.

– نعم يا«روشيل».

– «دارت» يريد حصانه الأسود. هل تسرّجينه لي يا عزيزتي؟ تأخرت عن الموعد. وللحظة لم تصدق «كولبي» ما سمعت. سمّرتها المفاجأة في مكانها. لم يكن «دارت» ليسمح لأحد بلمس حصانه المفضل. وتمكنت «كولبي» من النطق أخيرًا.

– ماذا؟ أنت ستمطتين حصان «دارت» الأسود؟

– طبعًا. ومن يستطيع ذلك غيري؟ كنت أتمنى لو كان بإمكانك القيام بهذه المهمة عنّي. واشتعلت في عيني «كولبي» ثورة مكبوتة.

– طبعًا بإمكاني القيام بهذه المهمة. أعرف كيف أتعامل مع الخيول، مثلك تمامًا. رددت «كولبي» في نفسها «بل أفضل منك»! فقالت لها «روشيل»:

– حسنًا يا«كولبي»، إن كنت تظنين أنك قادرة على ذلك. واسترخت «روشيل» بتكاسل على سور الشرفة ثم استطردت قائلة:

– فستوفرين عليّ الكثير من الوقت يا عزيزتي. سبقتني «سوزان» إلى الوادي.

– إنها مجرد خدمة بسيطة يا«روشيل». استمتعي بنزهتك.

– وأنت أيضًا. وابتعدت «كولبي» دون أن تلاحظ البريق الساخر في عيني «روشيل». ولم تشك «كولبي» في نيات الضيفة العزيزة إلا حين انطلقت بالحصان تسابق الريح. «دارت» حذرها مرارًا ألاّ تقارب جواده، وهو ليس من الرجال الذين يسامحون العصيان. لا. لا يمكن أن تخدعها «روشيل» إلى هذه الدرجة. «دارت» يريد حصانه. وهو يعرف تمامًا أنها تفوق «روشيل» مهارة في ركوب الخيل. والبرهان أن جواد «دارت» لم يمانع قط وجودها على ظهره. وجابت «كولبي» التلال بحثًا عن «دارت». فكان هو أول من رآها. وبلمحة حملها بين ذراعيه لينزلها بقسوة عن الحصان. وعرفت فورًا، من بريق الغضب في عينيه، أنها كانت ضحية لعبة شريرة. انصرف عنها «دارت» ليهدئ روع الحيوان الثائر، فتعلقت عيناها بوجه «بن» الذي وقف قريبًا منها يتابع المشهد بقلق. وأحس العجوز بحاسته السادسة أنه لن يستطيع أن يفعل شيئًا لمساعدتها في هذا الموقف، فابتعد ليجنبها إحراج وجوده.

أغلقت «كولبي» عينيها وهي تحاول جاهدة السيطرة على الذعر الذي بدأ يتسلل إلى كل كيانها. كم يبدو «دارت» مخيفًا في هذه اللحظة! إنه من الرجال الذين يرهبهم الجميع، وينفذون أوامرهم بسرعة. وفتحت «كولبي» عينيها، أحست بيدي «دارت» تضغطان على كتفيها بقسوة مؤلمة.

– أيتها البلهاء الصغيرة! هل تظنين أني أريد مأساة أخرى على أرض هذه المزرعة. ألم أحذرك من الاقتراب من جوادي الأسود؟ لماذا لم تلتزمي بأوامري؟ وأخذ يهزها بعنف، وقد أعماه الغضب. انهمرت دموعها وهي تحاول أن

تدافع عن نفسها.

– لكن يا«دارت».

– لا أريد أن أسمع كلمة واحدة. أستطيع تحطيمك يا«كولبي». لا تتحديني أكثر من ذلك. وتقلصت عضلات وجهه وهو ينظر إليها.

– هل نسيت اليوم الذي عادوا به بأمي إلى المزرعة؟! أعتقد أنك تتذكرين المشهد جيدًا. أنت مثلها تمامًا. لا تعرفين حدود قدراتك كامرأة. وعاد يهزها بعنف. غضبه العارم لم تشهد له مثيلاً من قبل. بلى... مرة واحدة. هكذا كان يبدو العم «سيروس» عندما خرج ليقتل الحصان الذي أودى بحياة زوجته.

وقبل أن تعرف «كولبي» ما جرى لها، وجدت نفسها مستلقية على ركبتي «دارت» الذي أخذ يضربها بقوة كطفلة صغيرة. تدفق الدم إلى رأسها، وغلى في دماغها. لم يكن ليهمّها أن تموت في تلك اللحظة. الدموع تحترق في عينيها، لكنها لن تدعها تنهمر. يا له من رجل متوحش! كيف يتجرأ على ضرب امرأة؟! إنها تكرهه... نعم تكرهه... طبعًا تكرهه! ولم تعرف «كولبي» أنها كانت تصرخ بالكلمات عاليًا. ساعدها «دارت» على الوقوف بعدما هدأ قليلا.

– سواء كرهتني أم لا، لن تنسي هذا الدرس يا«كولبي». وأتمنى ألا تعيدي الكرّة. اكتشفت أن الأفعال لها تأثير أكبر فيك من الكلمات.

– يا إلهي! وغرزت «كولبي» أظافرها في راحة يدها لتمنع نفسها من صفعه.

– كم أكرهك يا«دارت»! كيف تجرأت على ضربي أيها الثور الهائج! ولماذا؟ وانهمرت دموعها غزيرة وهي تردد بعصبية:

– كيف تجرأت... كيف تجرأت!

– سأتجرأ على فعل أي شيء مادمت أنت في رعايتي.

– لن أبقى في عهدتك بعد ما حدث. أنا غير مرغمة على تحمل هذا النوع من المعاملة. تستطيع ممارسة سيطرتك على كل من حولك، لكنك لن تتمكن مني

أبدًا أيها الوحش البرّي. ورفعت يدها لتصفعه، فكان أسرع منها.

– كفّي عن الصراخ يا«كولبي». لن أعتذر عمّا حدث. أنت أرغمتني على تأديبك. ألا تعتقدين أن الدرس الذي تلقنته الآن يبقى أفضل من أن تكسري عنقك على المدى الطويل؟ وحاولت «كولبي» الإفلات لكن دون جدوى. الدموع في عينيها أعمتها عن رؤية وجهه الشاحب.

– أرجوك دعني أذهب يا«دارت». لا تذلني أكثر. لو كنتُ رجلا لقتلتك فورًا.

وعكس ما توقعت، ضحك «دارت» وكأنها تمازحه.

– لو كنتِ رجلا يا«كولبي» لما حدث كل هذا. وعندما تركها أخيرًا، تعلقت عينا «كولبي» بآثار أصابعه التي تركت خطوطًا حمراء على بشرتها الرقيقة.

– «كولبي». آه يا«كولبي». كيف أتصرف معك؟ وراقبها لحظات بصمت، ثم التفت لينادي «بن» فظهر العجوز بعد ثوانٍ قليلة.

– عد بالآنسة «كولبي» إلى المنزل يا«بن». سأهتم أنا بالحصان الأسود. وقفزت «كولبي» على صهوة الجواد دون أن توجّه نظرة واحدة إلى «دارت» الذي وقف يراقبها بصمت. وعلى بعد أمتار التفت «بن» إلى رفيقته الشابة ليعاتبها بحنان.

– لماذا فعلت ذلك يا آنستي؟ كان السيد «دارت» محقًا في غضبه. وانهمرت دموع «كولبي» مجددًا.

– حتى أنت يا«بن»! ومدّ العجوز يده ليربت كتفها، محاولا التخفيف عنها.

– اهدئي يا صغيرتي. لم أكن لأنوي جرح أحاسيسك بكلماتي. عرفتك منذ كنت طفلة صغيرة، لكني لا أفهم ما الذي دفعك إلى تحدي إرادة السيد «دارت». أنت تعلمين جيدًا أن هذا الحصان بالتحديد أقوى من أن يخضع لإرادة امرأة. وأكمل العجوز حديثه يعاتبها بصوت حنون:

– ألا تذكرين اليوم الذي قضت فيه سيدة «كنغارا» حتفها؟ كانت سيدة عظيمة، لكنها كانت شديدة الاعتداد بإرادتها وصلابتها. أنا نفسي حذرتها

من ركوب جواد السيد «سيروس» لكنها لم تسمع. لن أتكلم الآن عن الماضي. ضعي نفسك في مكان السيد «دارت». كان خائفًا على سلامتك، ولذا كان غضبه بهذه الشدة. إنه يحبك كثيرًا يا صغيرتي. فيك يجري الدم ذاته.

وعضّت «كولبي» على شفتها لتوقف ارتعاشتها.

– لا أعتقد أنه يحبني يا«بن». بدأ يضيق بالمسؤولية التي ألقاها والدي على عاتقه.

– لا. لا تقولي هذا يا صغيرتي. أنت من دمه ولحمه. ولم تتمالك «كولبي» أعصابها أكثر من ذلك فانفجرت قائلة:

– إنها «روشيل». الآنسة «تينانت»! هي سبب كل ما حدث. قالت لي: إن «دارت» يريد جواده. فتبرعت بتأدية المهمة عنها.

– الآنسة «تينانت»! لكنها تعرف جيدًا أن «دارت» حذر الجميع من الاقتراب من حصانه. هل أخبرته بحقيقة ما جرى؟

– لا. وأرجوك يا«بن» ألا تخبره أنت أيضًا بما حدث. يكفي ما جرى حتى الآن. كنت ضحية مزحة سمجة. لا أدري كيف صدقتها! يا له من نهار مزعج! وابتسم العجوز وهو يقول:

– أعتقد أن الآنسة «تينانت» لابد من أن تعود إلى منزلها قريبًا. وعادت الحياة إلى عيني «كولبي» وهي تردد:

– أتمنى ذلك يا«بن». آه كم أتمنى ذلك!

- 8 -

صباح اليوم التالي استيقظت «روشيل» باكرًا، ونزلت إلى الحديقة لتختار مجموعة كبيرة من الزهور، ستنسقها لاحقًا بفن مترف ومعقد تعلمته خلال دراستها المكلفة في إحدى أشهر المدارس الأسترالية. وكانت «سوزان» تلاحقها كيفما توجهت؛ لتستفسر منها أكثر عن مغريات الحياة في المدينة، وعن كل

www.rewity.com

الأشياء الرائعة التي فعلتها ورأتها «روشيل».

ولم تعد «كولبي» تستطيع تحمل المزيد، فتركتهما لتساعد «بيللا» على الاعتناء بحديقة الأزهار الصحراوية، مكانها المفضل. معظم الغرسات كانت تتفتح في النهار وبعضها في الليل، فتتألق في احتفال رائع من الألوان يتماوج بين الأحمر والوردي والأصفر والأخضر والأبيض. ووقفت «كولبي» قرب «بيللا» المنحنية على مجموعة جديدة من الشتلات اليانعة تغرسها وتسقيها بحب.

– هل أستطيع مساعدتك يا عمتي؟

– طبعًا يا عزيزتي. هذا نوع جديد يحتاج إلى عناية خاصة جدًا. صحيح أنه يتطلب وقتًا طويلا ليفرج عن زهوره لكن النتيجة تكون رائعة فعلا وتستحق الجهد المبذول لها. يمكنك ريّ الغرسات التي انتهيت من زرعها. أنت تعرفين طبعًا أن هذا النوع من النبات لا يحتاج إلى الريّ إلا عند زرعه وتفتحه. وبعد ذلك يترك دون عناية.

– وأين أضع الماء؟ على جذور الغرسة فقط؟

– سأعلمك. ووقفت «بيللا» تنفض التراب عن ركبتيها.

– إنها عملية مهمة جدًا. وتناولت «بيللا» وعاء الماء لترش منه قليلا على الجذور وعلى التربة المحيطة بها. ثم نثرت قليلا على الأوراق الخضراء.

– هل عرفت كيف الآن؟ عليك أن تعاملي النبات بحب ورقة. وإذا أكثرت من الماء ستؤذينه.

وعملتا معًا بصمت في جوّ عائلي ودّي حميم. فعلى الرغم من الفارق الكبير في عمريهما، توطدت بينهما محبة عميقة وصداقة هادئة. وبين وقت وآخر كانت «كولبي» تلمح في عيني «بيللا» استسلامًا حزينًا، جعلها تشعر نحوها بحنان أكبر. من المؤسف حقًا أن العم «سيروس» لم يترك لأرملته مبلغًا كافيًا يؤمن لها الاستقلال المادي. صحيح أن «بيللا» لا تحتاج إلى المال الآن، لكن الأمر يختلف عندما يعرف المرء أن له رصيدًا خاصًا يعتمد عليه.

وعقدت «كولبي» حاجبيها عندما فكّرت في «دارت». لقد تجنبها بالأمس كمن

يتجنب مرضًا معديًا. لا، فلتقل بالأحرى إنها هي التي تجاهلته، لأنه لم ينتبه لها قط. كان مشغولاً بشرح تحركات النجوم لـ«روشيل» لأكثر من ساعة.

وفجأة ظهر «بوكا» من وراء سور الأعشاب، فأفزع السيدتين المستغرقتين في عملهما وأفكارهما. رأى الصبي شعر «كولبي» الناري عن بعد فجاء ليسليها. ابتسمت «بيللا» لـ«كولبي». صحيح أن رفقته ممتعة وطريفة لكنه سيعوق عملهما أيضًا. وأخذ «بوكا» يركض من واحدة إلى أخرى وهو يوجه إرشاداته ونصائحه التي كان من الأفضل تجاهلها.

وفي زاوية بعيدة من الحديقة كان النحل يطير فرحًا بين الزهور ليمتص رحيقها بنهم. وكانت نساء المنزل الكبير يتجنبن تلك الزاوية في هذه الفترة من النهار خوفًا من غضب النحل. أما «بوكا» فلم يكن ليستطيع ذلك على الرغم من الإنذارات المتلاحقة التي وجهت إليه بهذا الصدد. ولم يقتصر نشاط «بوكا» على مراقبة النحل بل كان يحاول التقاط بعضها ليجففه لاحقًا ويأكله. فهذا هو الطعام المفضل لدى السكان الأصليين. ويئست «بيللا» من استدعائه بعد النداء الرابع.

– لا أدري لماذا أقلق عليه. يبدو أن النحل لا يحاول إيذاءه. لو ذهبت أنا إلى هناك لهاجمني دون رحمة. وتوقف «بوكا» عن لهوه عندما خرجت «روشيل» إلى الشرفة وهي تصفق عاليًا وتناديه بلهجة آمرة:

– تعالَ هنا أيها الصبي الأسود! رنت الكلمات مزعجة في الهواء. فلم تتمالك «بيللا» نفسها عن التعليق قائلة:

– يا إلهي! أتمنى لو تتجنب «روشيل» استعمال مثل هذه التعابير. إنها تجرح إحساس «بوكا» عندما تناديه بالصبي الأسود. السكان الأصليون يعتدّون بلونهم وبحضارتهم. وتجاهل «بوكا» النداء وكأنه لم يسمعه. نزلت «روشيل» الدرجات القليلة لتقترب من «بيللا».

– أحاول العثور على «ميني». اعتقدت أن الصبي الصغير يعرف مكانها. طبعًا لن يخبرني. كلهم يتكاتفون ضدنا. نظرت إليها «بيللا»، وبحركة لا شعورية

حاولت ترتيب خصلاتها الفوضوية. لا تعرف لماذا يشعرها وجود «روشيل» بأنها امرأة متقدمة في السن وسيدة مهملة لمظهرها العام.

– وماذا تريدين من «ميني»؟ لوت «روشيل» شفتيها باستياء واشمئزاز.

– كسرت إناء الزهور واختفت كعادتها.

– لا تقلقي يا«روشيل». اعتدنا ذلك. فقطبت «روشيل» حاجبيها.

– أعتقد أنه يجدر بك معاقبتها. زمت «بيللا» شفتيها ولم تجب. فالتفتت «روشيل» لتبحث مجددًا عن «بوكا».

– أين ذهب الشحّاذ الصغير؟

– اسمه «بوكا». قالتها «كولبي» بحدة وانصرفت إلى ريّ الغرسات. لكن «روشيل» أصرت على مضايقتها مجددًا.

– وهل لاسمه أهمية؟ تدخلت «بيللا» بحدّة فأثارت استغراب الفتاتين.

– طبعًا يا«روشيل». أنا أعتقد أن اللياقة لا تقتصر على فئة معينة من البشر. من الواجب أن تكون معاملتك طيبة مع الجميع. أحسّت «كولبي» بسعادة غامرة، لأن «بيللا» اختارت الوقوف إلى جانبها. أما «روشيل» فتلون وجهها بحمرة الغضب. ترددت قليلا، لكنها عادت لتهاجم «كولبي» بطريقة أخرى.

– أريد موافقتك يا«بيللا» على الطريقة التي نسقت بها الزهور. طبعًا عندما يتسنى لك الوقت لذلك. أمضيت وقتًا طويلا في ترتيبها، وأعتقد أنها ستعجبك. فهي تختلف تمامًا عن الأسلوب الفوضوي الذي يستعمله بعض الناس. ونظرت إلى «كولبي» بسخرية. وأنقذ الموقف المتفجر صوت «سوزان» الذي وصلهن مرحًا من الشرفة.

– تعالي يا أمي. لابد من أن تري ماذا فعلت «روشيل». وكادت «بيللا» تصرخ انزعاجًا! كيف استطاعت «روشيل» أن تكسب كل هذا الحب والتقدير من ابنتها! ربما يعود ذلك إلى حاجة «سوزان» إلى رفيقة. و«روشيل» ذكية فعلا في تعاملها معها. اليوم تشعر «بيللا» بنفسها متعبة مسنّة، يغلفها خمول شديد يسبق عادة حالات الصداع التي صارت تنتابها أكثر فأكثر. وابتسمت «بيللا»

لـ«كولبي» وحاولت أن تضع في عينيها كل محبتها لها قبل أن تنصرف برفقة ضيفتها. وتابعتهما «كولبي» بنظراتها وهي تعض على شفتها السفلى. «روشيل» لا تطيقها، و«سوزان» تبدي تجاهها لا مبالاة واضحة. و«دارت» متضايق منها. فماذا بقي لها بعد ذلك؟

وأيقظها من شرودها ضجيج «بوكا» الذي كان يتمرّغ على العشب قريبًا منها. أحسّ الصبي بحزنها فحاول جهده التخفيف عنها بحركات مضحكة. جاء برفقة صديقه «كولبار جو» لتسليتها. و«جو» هذا لم يكن إلا طائرًا بريًّا من نوع «ألامو» (طائر أسترالي يشبه النعامة لكنه أصغر منها بقليل) لم يعرف أحد كيف تمكن «بوكا» من تحويله إلى حيوان أليف ولا كيف أصبحا من أقرب الأصدقاء. وفعلا تمكن الصغير من رفع معنوياتها، فشاركته ضحكه ولعبه.

– ما رأيك في نزهة يا«بوكا»؟ وأشرق وجهه على الفور.

– طبعًا موافق يا آنستي. سأدلك على أمكنة جديدة رائعة الجمال. وانطلقا معًا على ظهر «سورشا». ولم تتوقع «كولبي» أن تكون الرحلة من أروع وأغرب ما قامت به حتى الآن. أخذها «بوكا» إلى التلال الحمراء، المليئة بالمغارات الصغيرة، والتي يعتبرها السكان الأصليون أرضهم المقدسة. عندما كانت طفلة، كانت «كولبي» تخاف المرور في هذه المنطقة ليلا. هناك شيء ما ينبع منها يجعل الشعر يقف على رأسها. الأصليون يلقبونها أرض الأرواح الحيّة ويستطيع المرء أن يصدق ذلك بسهولة. ففي الليل كانت الأضواء تتلاعب فوق التلال وكأن شبحًا خفيًّا يلهو بنقلها من مكان إلى آخر لإخافة من تسوّل له نفسه الاقتراب من التلال السحرية. قد تكون هذه الأضواء نتيجة بعض العوامل الطبيعية، لكن من المخيف حقًّا مشاهدتها. وكانت «كولبي» سعيدة جدًّا، لأن الشمس كانت تغرق في تلك اللحظات كل الزوايا. وأخذت «كولبي» بنصيحة «بوكا» فربطت فرسها إلى شجرة قريبة وتسلقت معه التلال سيرًا على الأقدام. لكنها لم تتمالك نفسها أن تهمس في أذنه.

– أتمنى ألا تكون هناك ثعابين سامّة في الجوار يا«بوكا»!

ابتسم «بوكا» وقادها إلى مغارة واسعة تناثرت على أرضها جلود الثعابين. وعرفت «كولبي» فورًا أن هذا هو المكان الذي تغير فيه الثعابين جلدها سنويًا. أراد الصغير أن يمازحها بعدما شعر بخوفها. وعندما التفتت إليه لتؤنبه على ما فعل انفجر ضاحكًا، وفرّ إلى المغارة المجاورة، فتبعته وكاد رأسها يصطدم بالمدخل المنخفض. وفي الداخل رأت «كولبي» ممرًا في الصخر يؤدي إلى مغارة أخرى. ومرّ «بوكا» من الفتحة وساعدها لتلحق به. ولم تتمالك «كولبي» نفسها من التفكير في أن «دارت» لا يستطيع إدخال جسمه القوي في هذه الفتحة الصغيرة. وعندما وصلت «كولبي» إلى المغارة الثانية شهقت دهشة. فالجدران الصخرية كانت مزينة بلوحات بدائية غريبة ملونة بظلال الأرض. بعض الوجوه على الجدران كانت تتفحصها بشكل مخيف. عرفت أنها تمثل الأرواح الشريرة عندما رأت ألسنتها الحمراء تتدلى من شفاه بيضاء. أما الأيدي والأرجل فكانت تشبه أطراف الهياكل العظمية مع فرق واحد، هو وجود مخالب حيوانية بدلا من الأظافر.

وفي مواجهة هذه الأرواح الشريرة كان يقف المحاربون الشجعان الذين يدافعون عن الخير تحت حماية الأرواح الصالحة. وعلى عرض السقف تلوّى رسم ثعبان ضخم رفع رأسه مهددًا. وتجول «بوكا» بثقة في أرجاء المغارة وكأنه بائع لوحات يعرض بضائعه على مشترٍ ثريٍّ. كان يدلّها على الرسوم ويشرح لها معانيها باطلاع يستغرب المرء توفره في صبي صغير. لأجيال عدة، ساهم السكان الأصليون في المحافظة على هذا المعرض البدائي. ولذا مشت «كولبي» بصمت واحترام قرب «بوكا» وهي تمرر يدها بين وقت وآخر على الصفحات الصخرية. وبعد فترة التفتت إلى «بوكا» لتقول له بانفعال واهتمام:

– والآن أعد كل ما قلته من البداية. وابتسم «بوكا» فخورًا بتراثه العريق، وسعيدًا لأن الآنسة الشابة قدّرت معنى الثقة التي منحها إياها عندما اصطحبها إلى الأرض المقدسة، أرض أجداده. فور عودتهما إلى المنزل الكبير طالعهما مشهد غريب. كانت «روشيل» شاحبة اللون، زائغة النظرات، تستند

إلى حائط المنزل، وأمامها «كولبار جو» يحدق إليها بثبات. ما هي المدة التي قضتها يا ترى في هذا الوضع. لا أحد يعرف؟ وتحركت «كولبي» بسرعة توجه أوامرها إلى «بوكا».

– هيّا يا«بوكا» استدعي «جو». الآنسة «تينانت» خائفة، كن حذرًا في تحركاتك.

كانت «كولبي» تعرف جيدًا أن غضب «ألامو» قد يكون خطرًا فرفسته تعادل في قوتها رفسة البغال. وانصاع «بوكا» للطلب بسرعة. فاستدعى صديقه بلهجته الوطنية. استجاب الطائر للنداء، وانطفأ بريق الخطر في عينيه وهو يلقي رأسه بدلال فوق كتف «بوكا». أسرعت «كولبي» إلى «روشيل» معتذرة. هي مسؤولة عن «بوكا» وبالتالي عن «الامو».

– آسفة يا «روشيل».

– طبعًا أنت آسفة أيتها الفتاة اللئيمة. أنت تحاولين الانتقام مني لما قلته أمس. تسمّرت هنا حوالي عشرين دقيقة وأنا خائفة من رفسة تصيبني في الرأس أو أسوأ من ذلك. كنت خائفة من الصراخ لطلب النجدة، حتى لا أثير حفيظة هذا الحيوان اللعين. إنه يستحق القتل. وأخذت «روشيل» تصرخ وتتوعد. أما «كولبي» فأخذت تتكلّم بحذر وهي تحاول المحافظة على هدوء أعصابها قدر المستطاع.

– اهدئي يا«روشيل». أؤكد لك أنك لم تكوني في خطر.

– تؤكدين ماذا أيتها اللعينة؟ ورفعت يدها وصفعتها بقوة لم تكن «كولبي» لتنتظر ردّة الفعل هذه، فسقطت أرضًا واصطدمت مؤخرة رأسها بأحجار الحديقة. اقترب «ألامو» من «روشيل» مهددًا، أما «بوكا» فتسمّر مكانه هلعًا يحدق إلى «كولبي». كانت فاقدة الوعي لا تتحرّك وقد تحول لون وجهها إلى لون بنفسج الصحراء. ووقع عليه الأمر كالصاعقة. فأخذ يصرخ عاليًا:

– الآنسة فارقت الحياة. وركض يائسًا باتجاه المنزل الكبير، على الرغم من أنه كان ممنوعًا من دخوله. ولمّا لم يجد سيده هناك، أسرع خارجًا ولم يتوقف

حتى استراحت عيناه أخيرًا على «دارت» و«ستيفن» يخرجان من الإسطبل. وبعد لحظات التف كل سكان المنزل الكبير حول «كولبي»، بعدما سمعوا جميعهم عويل «بوكا». ونقل «دارت» بصره بين «كولبي» و«روشيل» التي تسمّرت مكانها كصخرة، حتى نسيت وجود «ألامو». صفّق «دارت» بيديه فابتعد الحيوان عنها. وركع على ركبتيه ليفحص «كولبي» عن قرب. كانت قد استعادت وعيها، وإن كانت ما تزال تحت تأثير الصدمة. رفعت إليه عينيها الخضراوين فلفت انتباهها الاهتمام القلق الواضح على وجهه. فقالت باسمة قبل أن يغمى عليها مجددًا:

– لا يعجبني أصدقاؤك. لم تشعر «روشيل» في حياتها بالحرج الذي كان يمزقها في تلك اللحظة. انطلقت في دفاع مستميت عن نفسها وهي تمد يدها إلى «سوزان» طلبًا للنجدة. واحمرّ وجهها انفعالا.

– إنه «ألامو». أخافني وسمرني في مكاني لأكثر من نصف ساعة. لم يتحرّك حتى جاءت «كولبي» و«بوكا». صحيح أنها صرفته بعيدًا عنّي، لكنها كانت قليلة الأدب معي. كنت مضطربة لدرجة لم أعرف معها ماذا حصل بعد ذلك.

ووضعت يديها على وجهها وانفجرت في بكاء عنيف. لكن أحدا لم يهتم بها. يا لـ«كولبي» اللعينة! كيف كان بإمكانها أن تتنبأ بأنها ستسقط أرضًا وتصدم رأسها بحجر؟ يا له من موقف مزعج! مرّر «دارت» أصابعه في الخصلات النارية بحثًا عن أي ورم تكون قد تركته الصدمة. فوجد جرحًا صغيرًا لا أهمية له. حملها بين ذراعيه وسار بها إلى المنزل وقطعت «بيللا» الصمت لتطمئنهم جميعًا.

– لا تخافوا. مجرد رضوض بسيطة. سأتصل بمقر الطبيب المتجول، لأساله عما يجب عليّ فعله في هذه الحالة. سأطمئن أكثر بعد ذلك. وتبعوا جميعهم «دارت» بصمت إلى داخل المنزل.

عندما عادت «كولبي» إلى وعيها، شعرت بألم بسيط في أعلى عنقها انتقل

بالتدريج ليضع غشاوة على عينيها. وفي لحظة استرجعت كل تفاصيل الحادث. رفعت رأسها ببطء فرأت «دارت» يدخل من الباب ووراءه «بيللا» تبدو متعبة، لكن سرعان ما أشرق وجهها عندما رأت «كولبي» جالسة في فراشها.

– استيقظت يابنتي العزيزة؟ هل تشعرين بتحسن؟ يبدو عليك ذلك.

– نعم أنا أحسن بكثير. شكرًا لك يا عمتي «بيللا». وانتبهت «كولبي» للمرة الأولى أنها ترتدي قميص نومها البرتقالي المنخفض لدى فتحة الصدر، فغرقت أكثر تحت الغطاء. اقترب «دارت» من الجهة اليسرى من سريرها وفي يده حبتين صغيرتين. وطلب منها الجلوس مجددًا.

– هيّا ابلعي هاتين الحبتين.

– وما هذا؟

– لا تسأليني. اسألي الطبيب. قالها ببرود، فتدخلت «بيللا» كعادتها لترطب الأجواء.

– هذه الحبوب تحمل الرقم ثمانية وعشرين يا«كولبي». ولا أدري ما هي. وسأل «دارت» «كولبي» ساخرًا:

– هل أنت مطمئنة الآن؟ ضحكت «كولبي». وتناولت الحبتين.

– لا، لكني لا أبالي. أعتقد أن الطبيب يفهم أكثر منّي في هذه الأمور.

«كنغارا»، ككل المزارع في هذه المنطقة النائية كانت مجهزة بمختلف أنواع الأدوية. وكانت الوصفات الطبية تتم هاتفيًا، بواسطة أرقام معينة تلصق بالدواء، فيعطي الطبيب رقم الدواء الواجب استعماله في حال لم يتمكن من الوصول إلى مريضه في الوقت المناسب. وقد برهنت هذه الطريقة على نجاح أكيد. أعادت «بيللا» ترتيب الوسائد وراء ظهر «كولبي».

– «بوكا» جاء لزيارتك منذ دقائق قليلة. كان الطفل المسكين مضطربًا. إنه يحبك كثيرًا يا«كولبي». سأناديه بعد قليل ليراك. لم يصدق بعد أنك بخير. وتبادلتا الابتسام. التفتت «بيللا» إلى «دارت» الذي ظلّ صامتًا يتفحص وجه

www.rewity.com

«كولبي» الشاحب.

– أعتقد أنك تريد التحدث مع «كولبي» يا«دارت». سأترككما معًا. وسأرسل لك عشاء خفيفًا يا«كولبي». لا تحاولي النهوض من فراشك. وأغلقت وراءها الباب قبل أن تعلّق «كولبي» بكلمة واحدة. أرغمها «دارت» على الاسترخاء في فراشها وجلس إلى جانبها ينظر إليها عاقد الحاجبين.

– حسنًا يا«دارت». ما الأمر هذه المرة؟ هل ضايقت صديقتك العزيزة؟

– أخبريني بما حصل. سمعت رواية «روشيل»، وثرثرة «بوكا». وأنا الآن بانتظار ما ستقولين.

– وهل ستصدقني يا «دارتلاند كينغ»؟

– ربما.

– لا أعرف من أين أبدأ!

– من البداية. أغمضت «كولبي» عينيها. آه لو يعرف كم يخفق قلبها في هذه اللحظة. إنها تحبه! استغرقتها أفكارها لدقائق قبل أن تفتح عينيها أخيرًا، لترى ابتسامة «دارت» الحانية.

– من حسن حظي أني أخذت إجازة اليوم. هل عليّ أن أنتظر النهار بطوله كي أسحب منك بضع كلمات؟

– الأمر ليس بهذه الأهمية يا«دارت». كانت «روشيل» خائفة لدرجة انفجر معها غضبها في أول وجه رأته. وصادف أني كنت ذاك الشخص. أنا آسفة جدًا لأنك لم تكن أنت مكاني.

– ألم تسخري منها؟ أعرف طبعك الناري.

– لا. طلبت منها أن تهدأ فقط وأؤكد لك أني كنت آسفة جدًا لما حصل لها. لكني لم أعد آسفة الآن. قبضتها حديدية فعلا وكأنها من عائلة «كينغ».

– ليس لها الحق بضربك.

– أنت فعلت مثلها تمامًا. هل نسيت؟

– لا. لكن الأمر يختلف معي. وضحك عاليًا فأغلقت «كولبي» عينيها ثانية.

لا تدري ما بها. إنها مضطربة جدًا. لابد من أنه أثر الضربة. وأحسّت «كولبي» بقبلة رقيقة على وجهها فارتجفت بعنف للمس شفتيه.

– آه يا «دارت». لماذا فعلت ذلك؟ ابتسم ساخرًا بانفعالها.

– لو كنت أعلم أنك ستتصرفين هكذا لما قبّلتك. سأتركك الآن لترتاحي. سأعود لأراك لاحقًا. وقبل أن يخرج من الغرفة، توقف قليلا عند الباب ليقول لها:

– صديقتي العزيزة –كما تسمينها يا«كولبي»– عادت إلى منزلها. طلبت من «ستيفن» مرافقتها. كانت منزعجة جدًا. وكذلك «بيللا». آه من النساء! تعليقه ذكّرها بالعم «سيروس»، فأغرقت في الضحك.

- 9 -

حشد الصيف كل قوته ليغرق الأرض بموجة من الحر الشديد. القطيع معظمه نقل إلى أسواق «أديلاييد»، ليباع هناك قبل أن توهن الحرارة قوته ونشاطه. فأشهر الصيف في المناطق الداخلية من القارة الأسترالية تمارس قسوتها على الإنسان والحيوان معًا. ولذا كان على الرجال نقل ما تبقى من القطيع من المناطق التي جفت مياهها إلى واحات أخرى، وذلك في الشاحنات لتجنيب الماشية الإرهاق والعطش. وكان الرجال يعملون من الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة من المساء. ففي ساعات النهار كانوا ينقلون الثيران الكبيرة وينتظرون الليل ونسماته المنعشة لنقل الأبقار وعجولها.

ومع مرور الأيام استقرت نساء البيت الكبير في نظام روتيني يومي. ووزعن ساعات النهار بين الاهتمام بشؤون المنزل، والاعتناء بالحديقة، والإشراف على الدكان التجاري الخاص بالعمال. وتولت «كولبي» و«سوزان» مهمة تموين الدكان الصغير عوضًا عن «مايك» الذي استغرقه عمله اليومي الشاق.

كانت الفتاتان منشغلتين تمامًا في ترتيب دفعة البضائع الجديدة التي جلبها

www.rewity.com

الطيّار الشاب «بوب غافين». وكان لابد من تسجيل كل شيء في الدفاتر: الثياب، والمواد الغذائية، ومستحضرات الغسيل، والكتب، والأسطوانات. وتوقفت «كولبي» ضاحكة أمام مجموعة القمصان التي طلبها العمال. فهم كمعظم الناس الملونين يحبون الألوان الصارخة. وكلما كان اللون فاقعًا كان الإقبال عليه أكبر. ويبقى اللون الأحمر الناري هو الأكثر شعبية، ويليه البرتقالي. وصحيح أن قمصان العمل والسراويل الكاكيّة كانت تخاط في المزرعة وتؤمن للعمال مجانًا، إلا أنهم يفضلون النوع الأكثر ترفًا الذي يحصلون عليه من دكان المزرعة. ودُهشت «كولبي» للدقة والفعالية والسرعة التي تعمل بها «سوزان». فهي تتصرف في المنزل عكس ذلك تمامًا. وكأن «سوزان» أحست بما يجول في خاطر «كولبي» فرفعت رأسها مبتسمة. وقالت:

– كنت أحلم دائمًا بأن أصبح ممرضة.

– وما الذي منعك من تحقيق هذه الأمنية؟

– لا أملك المال الكافي لذلك! ومن جهة أخرى لا أستطيع أن أترك أمي وحدها هنا. إنها ليست مزارعة على الرغم من أنها تحاول جهدها لتكون كذلك. ورفعت «سوزان» يدها بعصبية كأنها تريد أن تطرد هذه الأمنية من رأسها. وقالت:

– ما فائدة الحديث عن كل هذا؟ أنا لا أستطيع أن أفعل شيئًا.

– بل تستطيعين أن تفعلي الكثير. لم يفت الأوان بعد. هل تكلّمت مع «دارت» بهذا الشأن؟

– «دارت»!... يا إلهي... طبعًا لا. أريد أن أبوح لك بسر يا «كولبي». كنت أخاف جدًا من زوج أمي، وكذلك «ستيفن». وجزء من ذلك ما زال يلازمني عندما أتحدث إلى «دارت». إنه ابن العم «سيروس». ولم تصدق «كولبي» ما سمعت.

– آه يا«سوزان»، كيف يمكنك النظر إلى «دارت» هكذا؟ إنه يختلف عن العم «سيروس». «دارت» إنسان بكل معنى الكلمة.

– أعلم. لم تفهمي قصدي جيدًا. زوج أمي كان أيضًا طيبًا في معاملتنا لكن على طريقته الخاصة. وفي الحقيقة حاول جهده أن يكسب ثقتنا، لكننا، كأولاد المدن، كنا نشعر بالخجل وبعدم الثقة بالنفس. لم يستطع العم «سيروس» أن يفهمنا. أما بالنسبة إلى «دارت» فالأمر مختلف أعترف بذلك. لكن عليك أن تعترفي أنت أيضًا بأن لـ«دارت» شخصية مميزة أجد معها صعوبة في أن أطلب منه أي شيء. حين أتكلم معه أتلعثم أو أجيب بعنف وجفاء. وخفضت «سوزان» نظرها لتتابع بشيء من الخجل:

– أعتقد أنك تعرفين أننا لا نملك مالا خاصًا بنا. لكننا لا نحتاج إليه على أي حال «دارت» يتكفل بكل أمورنا.

– ما المشكلة إذن؟

– يبدو يا عزيزتي «كولبي» أنك لم تسمعي ما قلت. أريد أن أصبح ممرضة والأيام تمر بسرعة. لم أعد صغيرة. أنا في الثامنة عشرة. أي أنّي تجاوزت السن المطلوبة للسنة الدراسية الأولى. ونظرت إلى «كولبي» بإعجاب قبل أن تكمل حديثها.

– الحياة التي نعيشها شديدة القساوة يا«كولبي»، ولا يستطيع تحملها إلا الأقوياء. أنت جزء من هذه الأرض وتنتمين إليها بكل جوارحك. على المرء أن يكون أعمى كي لا يرى ذلك. صحيح أنك كنت جميلة جدًا عندما جئت إلى هنا لكنك الآن أكثر فتنة وكأن الطبيعة رحبت بعودتك إلى أحضانها بأن سكبت عليك كل إشراقها ودفئها. هذه البلاد بقسوتها، وصمتها المخيف، ومساحاتها الشاسعة، لا ترحم إلا الرجال الذين يوازونها صلابة. أنا لم أخلق لها، وكذلك والدتي رغم أنها تدّعي العكس. أما «ستيفن» فيعيش هنا أسعد أيام حياته.

– ربما كنت على حق يا«سوزان». لكني لا أرى سببًا يدعوك إلى تحمل كل هذا. وترددت قليلا قبل أن تتابع قائلة:

– هل تسمحين لي بأن أكلم «دارت» بهذا الشأن؟ لا يمكن أن تتوقعي منه

أن يكون قادرًا على قراءة الأفكار. أنا متأكدة أنه لن يقف في طريقك. بل أنا واثقة بأنه سيساعدك ماديًا.

– حسنًا يا«كولبي». تكلمي معه إذا كنت ترين ذلك مناسبًا. لكن «روشيل» قالت... وتوقفت فجأة عن الكلام، فأسرعت «كولبي» لمساعدتها.

– نعم؟ «روشيل» قالت ماذا؟

– انسي الموضوع يا«كولبي». لا يهم ما قالته «روشيل». أعتقد أنني سأكون ممرضة ممتازة.

– لا شك في ذلك. اتركي الأمر لي. سأتحدث إلى «دارت» في أقرب فرصة ممكنة. ودخل «بن» عليهما في تلك اللحظة. رفع قبعته عن رأسه ليحييهما باحترام.

– صباح الخير. آسف لأني قطعت عليكما الحديث. اعذراني. دقيقة واحدة وسأخرج. وتوجه فورًا إلى الغرفة الخلفية ليعود بعد قليل حاملا بندقية من عيار 22. أحنى لهما رأسه بسرعة وهرول خارجًا. رفعت «سوزان» كتفيها باشمئزاز. وقالت:

– أعتقد أنه ذاهب لتنفيذ عملية قتل جديدة.

– نحن نحتاج إلى اللحم يا«سوزان». «بن» يستطيع أن يقتل العجلة بطلقة واحدة. إنها طبيعة الحياة هنا. ولا يستطيع المرء أن يكون شديد الحساسية في هذه الأمور وإلا مات جوعًا.

– أعلم يا«كولبي». ولا أستطيع الادعاء أني أحب أن أكون نباتية. وألقت «سوزان» نظرة أخيرة على الغرفة الواسعة.

– أعتقد أننا انتهينا من ترتيب الشحنة الجديدة. أليس كذلك يا«كولبي»؟ تمتمت «كولبي» بشرود:

– نعم. ذهنها كان منشغلا الآن بما ستقوله لـ«دارت». أغلقت «سوزان» الدكان وعادت الفتاتان إلى المنزل.

انتظرت «كولبي» نهاية الأسبوع قبل أن تحدث «دارت» بشأن «سوزان»

أرادت أن تنتهز أول فرصة يعود فيها باكرًا إلى المنزل لقضاء أمسية هادئة. وما كاد «دارت» يفعل ذلك حتى لحقت به إلى الشرفة تحمل له كوبًا من الشراب المنعش. مناورتها الطفولية هذه اكتشفها «دارت» بسرعة.

– حسنًا يا«كولبي». ما هو طلبك هذه المرة؟

– كيف عرفت؟ نظر إليها ضاحكًا وهو يقول مداعبًا:

– هيا يا عزيزتي، أطلقي نيرانك. وقفز قلب «كولبي» فرحًا عندما سمعته يناديها يا عزيزتي، لكنها تمالكت نفسها بسرعة.

– الأمر يتعلق بـ«سوزان». ومرّت في عينيه الواسعتين لمحة اهتمام سرعان ما انطفأت.

– حقًا! تكلمي يا صغيرتي. ليس من عادتك التلعثم في الكلام.

– «سوزان» تريد أن تصبح ممرضة، ومن حقها أن يفسح لها المجال لتحقيق طموحها.

– طبعًا!

– أنت موافق إذن. ولم تصدق «كولبي» أنها فازت بهذه السرعة، فرفعت رأسها تتفحص وجهه. طمأنتها ابتسامته.

– طبعًا يا عزيزتي أوافق. هل كنت تظنين عكس ذلك؟ وأمسك يدها بقوة، بعدما توقفت نظراته لحظات طويلة على بشرتها الذهبية.

– تعالي معي لنقوم بنزهة قصيرة يا صغيرتي. وكادت «كولبي» تضحك عاليًا وهي تبسط يدها الصغيرة في قبضته. دعوته لها كانت أمرًا أكثر منها دعوة نزهة. وتعلقت عيناها بقامته الطويلة، وشعرت بالدفء يغمرها وهي تفكر في هذه العلاقة الجديدة بينهما.

«دارت». آه يا«دارت». واعتصر قلبها ألمًا. سارا بصمت. لم يرد أحد منهما أن يعكر سكون تلك الأمسية الرائعة. في ضوء القمر بدت التلال قريبة لدرجة يشعر معها المرء وكأنه يستطيع أن يمدّ يده ليلمسها. كان الهواء عابقًا بأريج الزهور، ومن بعيد تناهت إليهما تمتمة طاحونة الهواء، وهمهمة الماشية

www.rewity.com

المنتشرة على التلال. وأحست «كولبي» براحة عميقة، فتنهدت عاليًا. وأرخى «دارت» يده على كتفها وهو يقول بحب وفخر:

– إنها أرض رائعة يا«كولبي». ابتسمت له. وانعكس في عينيها شعاع القمر.

– إنها أرض للرجال فقط. أليس كذلك يا«دارت»؟

– إننا نحاول أن نجعلها صالحة للنساء أيضًا. الرجل قد يقوم بأي شيء عندما يجد المرأة المناسبة. والمرأة بدورها ستحاول أن تتغلب على الشعور الطاغي بالوحدة من أجل الرجل الذي تحب. وبعض النساء لا يشعرن بها على الإطلاق. ونظر إليها بحنان. لكنه سارع إلى تغيير الموضوع عندما أحس أنه سيضعف أمام هذه الطفلة التي كبرت بسرعة.

– الآن. ماذا كنت تريدين أن أفعل بشأن «سوزان»؟ لماذا لم تكلمني هي بنفسها في هذا الشأن؟

– أعتقد أنها لم ترد إزعاجك. استغرقك العمل كثيرًا في الأسابيع القليلة الماضية. أما أنا فعرفت بالمصادفة أنها تحلم بأن تصبح ممرضة. هذا كل شيء. أعتقد أنها تريد أن تبدأ الدراسة في أقرب فرصة ممكنة. إنها ليست مزارعة. الناس لا يستطيعون كلهم تحمل هذه الحياة القاسية. ألم تشعر بذلك يا«دارت»؟

– لا يبدو لي أنك تواجهين أي مشاكل هنا! ردت بعفوية، وكأنها تريد أن تعبر دفعة واحدة عن كل ما تحمله من حب لهذه الأرض.

– حبها يجري في عروقي. عرفتها منذ أن كنت طفلة فتعلقت بها. لم أنسها قط. كنت دائمًا أحلم باليوم الذي أعود فيه إلى «كنغارا».

مرّر «دارت» أصابعه في خصلاتها النارية، ثم رفع وجهها إليه. فأحست «كولبي» وكأن تيارًا كهربائيًا يمر بجسمها. جمدت في مكانها غير قادرة على القيام بأي حركة. وفضح وجهها المشرق اضطرابها. أما «دارت» فلم يظهر عليه أي انفعال. أحاط كتفيها بذراعه وتابعا السير. ومرة ثانية غيّر مجرى الحديث ليعود به إلى «سوزان».

– ما سأقوله لك الآن لا يعرف به أحد إلا «بيللا». ولذا أرجو أن تبقيه طيّ الكتمان يا«كولبي»، لقد خصصت لـ«سوزان» و«ستيفن» مبلغًا محترمًا من المال، لا يستطيعان التصرف به إلا عندما يبلغان الخامسة والعشرين من العمر. حددت السن هذه لأني أومن بأن المال الذي يأتي بسهولة وفي سن مبكرة، يذهب بسرعة. لم أرد أن يعرف «ستيفن» و«سوزان» الأمر إلا في الوقت المناسب. «ستيفن» يعمل الآن بجد ليبني مستقبله. إنه شاب طيب وصلب. أما بالنسبة إلى «سوزان» فالوضع مختلف. لم تستطع أن تتأقلم مع هذه الحياة القاسية. لابد من أن «بيللا» شعرت بذلك، لكنها كعادتها لم تقل شيئًا. تريد «سوزان» أن تصبح ممرضة، حسنًا، سأعطيها المبلغ اللازم وسأؤمن لها مكانًا للإقامة في المدينة لتعيش فيه أيام الأسبوع، وتقضي عطلتها الأسبوعية معنا. شرطي الوحيد أن تسكن «سوزان» في «بريسبان». فلي أقارب هناك يسهرون عليها. وتنفست «كولبي» الصعداء.

– كم أنا سعيدة لأنك وافقت يا«دارت»! كنت أعلم أنك لن ترفض.

– وهل كان هناك سبب يمنعني من الموافقة؟ لا يمكنكم أن تتوقعوا مني قراءة فكر فتاة شابة. كل ما لاحظته على «سوزان» أنها تميل إلى السوداوية والمزاجية. ربما ستتغير الآن. على أي حال سأكلمها قريبًا. هل يوافقك هذا يا آنسة «كينغ»؟ ونظرت إليه «كولبي» وفي عينيها ثقة كاملة وعميقة.

– نعم يا«دارت». ولم تستطع أن تبعد نظراتها عنه. كانت سعيدة جدًا. أشرق وجهها الشاب وكأن القمر أعارها شيئًا من تألقه.

– هل تحاولين جعلي خاتمًا طيعًا حول إصبعك يا«كولبي»؟ ولمعت عيناها بشقاوة فيها مزيج من الطفولة والأنوثة المتفتحة.

– لا أدري من أوحى لك بهذه الفكرة! وهل أستطيع أن أفعل ذلك؟

– ربما. كان صوت «دارت» حادًا وفيه الكثير من الدعابة. للحظة أحست «كولبي» أنها غير قادرة على تحمل نظراته. حتى الهواء بدا محملا بقوى جديدة ضغطت على أعصابها. وطغى على صوت خفقان قلب «كولبي»، وقع

حوافر حصان يقترب منهما بسرعة. وتغير وجه «دارت»، وهو يلتفت باتجاه الفارس.

– لابد من أنه واحد من العمال. شيء ما حدث. ووقفا بصمت، ينتظران أن يقترب منهما الفارس كي يتبينا هويته.

– إنه «ستيفن». وبعد ثوان كان يقفز عن جواده وهو يلهث بسرعة.

– «دارت». «دينغو» هجم مجددًا. قبل قليل وجد «مايك» بقايا عجلين صغيرين افترسهما «دينغو» بوحشية. فأجابه «دارت» بعنف:

– حسنًا. هذا آخر ما سنسمعه عن هذا الحيوان المتعطش للدماء. سأجمع فريقًا من الرجال للبحث عنه. علينا أن نقتل «دينغو» قبل بزوغ الفجر. هل كان «بن» برفقتك؟ وتصبب العرق من جبين «ستيفن».

– لا. فقط «مايك» وبعض العمال الصغار.

– ابحث عن «بن». سأنتظركما أمام المنزل الكبير. سأرافقكما للحد من اعتداءات هذا الحيوان المفترس. تكفي المرات العديدة التي تمكن فيها من الإفلات. وأسرع «دارت» باتجاه المنزل، فركضت «كولبي» لتلحق به.

– «دارت». أرجوك دعني أرافقك.

– لا. قالها بحزم. فأصرّت بعصبية.

– لن أضايقك. أرجوك يا«دارت». سأساعدك. ألا تثق بي؟ توقف فجأة. وعندما نظر إلى وجهها الصغير الغاضب، ابتسم مرغمًا فعرفت بغريزتها الأنثوية أنها انتصرت عليه.

– طبعًا أثق بك يا«كولبي». حسنًا تستطيعين مرافقتي. والله وحده يعلم لماذا وافقت على هذا الأمر! وتضايق «دارت» من ضعفه العابر، لكنها أسرعت قبل أن يغير رأيه.

– شكرًا يا عزيزي «دارت»، سأذهب فورًا لأبلغ العمة «بيللا». وطارت «كولبي» بخفة الفراشات، ولم تتوقف إلا حين بلغت المنزل. كانت «بيللا» و«سوزان» في غرفة الجلوس تطالعان بعض المجلات. ورفعت «بيللا» رأسها

بقلق. ثم قالت:

– ما بك يا«كولبي». ماذا حدث؟

– «دينغو» هاجم القطيع مرة أخرى. سيخرج «دارت» لملاحقته. وأنا أيضًا.

– هل وافق «دارت» على ذلك؟ وبدا القلق واضحًا على وجه «بيللا». صحيح أن لـ«كولبي» إرادة حديديّة، لكنها لم تتوقع قط أن يستسلم لها «دارت» الذي كان يحرص دائمًا على حماية ومراقبة ابنة عمه.

– نعم «دارت» وافق. ليست هذه المرة الأولى التي أخرج فيها لصيد الذئب «دينغو». لكني كنت أظن أنها ستكون الأخيرة. وهمست «كولبي» في أذن «سوزان». قائلة:

– أعتقد أن ما كنت تريدينه سيتحقق قريبًا. انتظري قليلا وسترين بنفسك. وسمعت «كولبي» صوت «دارت» يناديها بلهجة آمرة. فطارت إليه حتى لا تغضبه. حركة خاطئة واحدة وسيأمرها بالبقاء في المنزل. كان الرجال الثلاثة بانتظارها. قفزت على فرسها بمهارة الفارسة المحترفة، فصفّر «ستيفن» إعجابًا قبل أن يعلّق ضاحكا:

– يسعدني حقًا أن ألتقيك مرة أخرى يا آنسة «كينغ». فأجابه «دارت» بحدة قبل أن ينطلق بجواده:

– إنها محظوظة فعلا لأنها هنا. وتحركت «كولبي» وراء الرجال تستمع إلى أحاديثهم. «دينغو» الذئب المتوحش المعروف بقوته ومكره، كان يشنّ هجمات دورية في شتى أنحاء المقاطعة تاركًا وراءه أثرًا داميًا من العجول الميتة، ويقال إنه حاول أكثر من مرة قتل الرجل الذي يقف في طريقه. أحد العمال تمكن من إصابته برصاصة واحدة عند هجومه الأخير، لكن الذئب استطاع الفرار ولجأ إلى التلال ليسترجع قواه. حتى «بن» اعترف بأنه من المستحيل تقريبًا القضاء على هذا الوحش البري نظرًا لجرأته وسرعة تحركه.

وبعد خمس وثلاثين دقيقة وصلوا إلى مخيم رعاة البقر، الذي انتشر حوله القطيع يرعى باسترخاء. نهض «مايك» من مكانه واقترب منهم عابسًا:

– تمكنا من تحديد مكانه عدة مرات. لكننا لم نتمكن من القضاء عليه. صوت الرصاص سيخيف القطيع، فلا نعود نستطيع السيطرة عليه. ترجل «دارت» عن جواده وساعد «كولبي» على النزول عن فرسها.

– على الأقل نحن الآن بينه وبين فريسته. أي أن هذا لمصلحتنا. سنحاول أن نطبق عليه من كافة الاتجاهات فور بزوغ الفجر. كان «مايك» ينظر إلى «كولبي» وكأنه لا يصدق وجودها بينهم. لاحظ «دارت» التعبير الذي مرّ خطفًا في عينيه، فابتسم ساخرًا.

– أعرف. أنا نفسي أكاد لا أصدق أني وافقت على اصطحابها معي. ودافعت «كولبي» عن نفسها فورًا.

– أنا صيّادة ماهرة يا «مايك». وهبّ «بن» لنجدتها.

– نعم هي كذلك. ألست أنا أستاذها؟

– فلنأمل أن تتمكن الصغيرة من البرهنة على ذلك. هذه هي فرصتك الوحيدة يا عزيزتي، وحتى أتأكد أنه لن يصيبك مكروه، سأبقيك بيني وبين «بن». «ستيفن» اذهب أنت برفقة «مايك». سأعود بعد قليل أريد أن أتكلم قليلا مع الرجال. وتوجه «دارت» إلى العمال، ليلقي أوامره عليهم. وبعد ساعة تقريبًا سمع الجميع صوت رصاصة يشق سكون الليل. وندت عن «دارت» شتيمة عنيفة.

– يا إلهي! إنه «ستيفن». ألن أستطيع أبدًا أن أجعل منه راعيًا ماهرًا؟ وقطع الصمت الثقيل صوت «بن» يقول بقلق:

– القطيع... وسمعوا كلهم صوت الحيوانات التي أخافها صوت الرصاص فبدأت تركض كموج هادر يجرف كل شيء في طريقه. ونظر «دارت» إلى جسم ابنة عمه الرقيق.

– يا إلهي كيف وافقت على مجيئك معنا؟!

– لا تخف. أنا لست لعبة من زجاج. ومن مكان قريب ارتفع صوت «مايك» صارخًا:

– «ستيفن»! لا تطلق رصاصة ثانية! أين أنت... القطيع!

جاء الإنذار متأخرًا، فالقطيع كان يهدر وراء قائده، والعرق يتصبب منه خوفًا وهلعًا. وأحس «ستيفن» الخطأ الذي ارتكبه. رأى «دينغو» فأطلق رصاصة إنذار. لقد نسي تمامًا وجود القطيع في حمى المطاردة. وتصبب العرق البارد من جبينه. إنه لن يصبح أبدًا راعيًا للبقر، ولو بعد مليون سنة من التدريب. «دارت» سيقتله لفعلته هذه. ها هو يراه الآن على صهوة جواده يمرّ أمام الثور القائد وهو يطلق الرصاص في العراء والرجال على الجوانب يلوحون بسياطهم في الهواء. وأجبر «دارت» الثور الهائج على تبديل مساره، وأخيرًا أوقفه على بعد كيلومترات قليلة من المخيم. اقترب «مايك» والعمال من القطيع الذي كان يرتجف خوفًا، وحاولوا تهدئته بأصواتهم الآمرة. صرخت «كولبي»:

– انتهى الأمر. الحمد لله! لم تعد تستطيع أن تلعب دور الفتاة الهادئة المتملكة لأعصابها. مازال ذهنها مشغولا بصورة «دارت» منقضًا على القطيع الهائج. الخطر كان كبيرًا. عجل واحد يستطيع أن يثير القطيع بأكمله بحركة واحدة. وبعد عشر دقائق عاد «ستيفن» شاحب اللون، وقد طأطأ رأسه أرضًا. وقف صامتا أمام «دارت» الذي ترجل عن جواده ببطء. وبدا الهواء ثقيلا بالتوتر. وساد الصمت لثوانٍ امتدت وكأنها ساعات. وأخيرًا قطع «دارت» السكون ليقول بحدّة:

– أعتقد أنك تعلمت الدرس جيدًا يا بني؛ لذا لن أقول لك أكثر من هذا.

واعترض «ستيفن» فورًا. قائلاً:

– اصرخ يا«دارت». أرجوك أنّبني. أنا أستحق ذلك. هيّا اضربني. قم بأي شيء أرجوك! أنا أستحق العقاب.

– لا داعي إلى ذلك يا«ستيفن». علينا أن نستعد لمتابعة المطاردة. سنتحرك عند بزوغ الفجر. سنتقاسم الحراسة طوال الليل. وأرخى «دارت» يده على كتف «كولبي» يهدئها لأنه أحس بأن جسمها ما زال يرتعش تأثرًا. وارتفع صوت «مايك»:

– سأقوم أنا بنوبة الحراسة الأولى. فاستراح الجميع بانتظار الصباح.

فاجأهم الفجر وهم يشقّون طريقهم وسط التلال بحثًا عن «دينغو». رآه «بن» الساعة الثالثة صباحًا تقريبًا وانطلقوا فورًا في أثره. كان الرجل العجوز يترجل عن جواده بين الحين والآخر ليلاحق الآثار التي تركها الحيوان على الأرض الندية. ارتفعت الشمس بالتدريج في السماء، حتى صارت تحرق ظهورهم بأشعتها اللاذعة. تقدم «دارت» و«بن» المجموعة، يحملان بندقيتين من نوع «وينشستر». «مايك» و«ستيفن» لازما «كولبي»، واحد إلى يمينها والآخر إلى يسارها، ليدافعا عنها في حال حدوث أي هجوم مفاجئ. كان «دينغو» في مكان قريب، يتسابق معهم في رحلة الموت هذه. مرات عديدة تمكن من الإفلات من قبضتهم بمكر وحكمة. كان يختار فريسته في أرض وعرة، بحيث تصبح ملاحقته شبه مستحيلة. وعلى طرف منطقة التلال الرملية شاهدوه للمرة الأولى يا له من حيوان ضخم، قوي العضلات! إنه بحجم الإنسان تقريبًا. لونه الأصفر البراق، والنقاط الحمراء على حنجرته فضحا مكانه.

أطلق «بن» جواده بأقصى سرعة. وشهر «دارت» بندقيته وحصانه الأسود يسابق الريح. ترددت طلقة «دارت» قوية في سكون الطبيعة، فخرّ الحيوان أرضًا من الرصاصة الأولى. وعندما وصل إليه «دارت» وجده جثة هامدة. وانتظرت المجموعة في مكانها عودة «دارت» الذي ذهب برفقة «بن» للبحث عن «لورا» أنثى «دينغو»، التي عرفها السكان الأصليون منذ عرفوا «دينغو». ففي مملكة الحيوان، كان «دينغو» من الفصائل النادرة التي تلازم أنثاها طوال العمر، وفي حال ماتت قبله لا يتخذ شريكة أخرى. الوفاء، والجرأة، والذكاء هي كلها من أبرز صفات هذا الحيوان. وتمكنت «لورا» من الفرار، واختفت في أعالي التلال. الطيور وحدها كانت تعرف مكانها، لكنها رفضت الإفصاح عنه. ونظر «دارت» إلى «بن».

– أعتقد أننا أنهينا عملنا لهذا اليوم. أليس كذلك؟ لم يكن وجه العجوز ليعبر عن أي انفعال.

– بلى. سنضيع وقتنا إن حاولنا ملاحقة «لورا». وأشار بيده إلى أعلى التلال.

– من الصعب عليها أن تبقى هناك دون ذكرها الذي كان يؤمن لها الطعام والحماية.

– فلنعد إلى المزرعة إذن. انتهى أمر «دينغو»، وهو مسرور جدًّا لذلك. بقي عليه أن ينتظر ردّة فعل «لورا». هل ستهاجم القطيع وحدها؟ سيتبين ذلك.

وعادوا إلى المجموعة المنتظرة بصمت. فسأل «ستيفن» باهتمام:

– هل عثرتما على «لورا»؟

– لا. يكفي أننا تمكنا اليوم من القضاء على «دينغو». «لورا» حتى الآن لم تشكل خطرًا على القطيع؛ ولذا سننتظر ردّة فعلها قبل القيام بأي هجوم. ولاحظ «دارت» انفعال «كولبي» وتأثرها.

– الحرارة ارتفعت كثيرًا يا«كولبي». سيعيدك «ستيفن» إلى المنزل. أما نحن فسنذهب إلى المزرعة. أشعر بأني أحتاج بقوة إلى فنجان قهوة. ما رأيك يا«مايك»؟

– سأحضر القهوة بنفسي. والتفت إلى «كولبي».

– ما رأيك يا آنسة «كينغ» في مشاركتنا؟ أحست «كولبي» أن «مايك» كان يراقبها طوال النهار بنظرات فيها معانٍ أكثر من الاهتمام العابر بابنة عم الرئيس.

– لم أتلقّ منكم دعوة رسمية بهذا الشأن! ضحك «مايك» عاليًا والتفت إلى «دارت» يطلب موافقته.

– حسنًا يا«كولبي» تستطيعين مرافقتنا شرط أن تحضري أنت بنفسك القهوة لنا. فقالت ساخرة:

– أوافق على شرط. وشكرت «كولبي» «مايك» بابتسامة رقيقة. ونقل «دارت» بصره بينهما وهو يلوي فمه بسخرية. ابنة عمه الصغيرة تبدو اليوم برقة الزهور. كم هي جميلة ومشرقة! لن يكون «مايك» بشرًا إن لم يلاحظ ذلك.

وقطب «دارت» حاجبيه وهم في طريق عودتهم إلى المزرعة.

- 10 -

قبل أسبوعين من حلول عيد رأس السنة، رافق «دارت» «سوزان» و«بيللا» إلى «بريسبان»، ليشرف على الترتيبات النهائية بشأن إقامة ودراسة «سوزان». لم يتأخر بالوفاء بوعده، بل ناقش بعد أيام قليلة مستقبل شقيقته الشابة، وساعدها على الإفصاح عن رغباتها وطموحها بانطلاق وصراحة. وعندما أحست «سوزان» أن حلمها سيتحقق أخيرًا، تغيرت تمامًا وكأن عصا سحرية حولتها فجأة إلى امرأة ناضجة. اختفى كل أثر لمزاجيتها القديمة وصارت أكثر اتزانًا ومرحًا. أما «بيللا» فشعرت براحة عميقة. كانت السنة الفائتة من السنوات العصيبة في حياة ابنتها. حين يستقر «دارت» وولداها في حياتهم الخاصة المستقلة، ستقبل العرض الذي قدمه لها «دارت»، وهو كناية عن شقة فخمة في أي مدينة تختارها. «أديلابيد» ربما. لها هناك الكثير من الأصدقاء، وخاصة صديقتها العزيزة «ثيلما».

غادروا جميعًا المنزل من أوائل الأسبوع، ولن يعود «دارت» و«بيللا» قبل نهايته. ولذا استغلت «كولبي» المناسبة لتتمتع بحريتها قدر المستطاع. لم يحاول «ستيفن» أو «مايك» الحد من تشردها الدائم في مختلف أرجاء المنطقة. فمحاولة «ستيفن» اليتيمة باءت بالفشل، وتجاهلتها «كولبي» تمامًا. لا شعوريًا أو بوعي تام، لم تكن الشابة لتعترف إلا بسيد واحد. وبما أنه لم يكن هناك في تلك اللحظة ليمارس نفوذه عليها، كانت تتصرف كما يحلو لها. لم يكن ليتركها تغيب عن عينيه لحظة واحدة. الأمسيات كانت تمر في جوٍّ شديد المرح. كان «ستيفن» و«مايك» يتسابقان لانتزاع الضحكات منها. السيدة «إيفانز» المشرفة على شؤون المنزل، وزوجها كانا ينامان في المنزل الكبير في غياب «بيللا»، وغالبًا ما يتناولان العشاء مع المجموعة في جوٍّ بعيد عن الرسمية.

وفي اليوم الثالث زال السحر، وذلك فور توقف سيارة «روشيل تينانت» أمام

باب المنزل الكبير. كانت «كولبي» تستعد للخروج لنزهتها الصباحية على صهوة فرسها، ومعها «بوكا» المصمم على تنفيذ أوامر سيده بالسهر على الآنسة الشابة. وفور خروجها إلى الشرفة رأت «كولبي» «روشيل» تترجل من سيارتها وهي في قمة أناقتها وجاذبيتها. توجهت «روشيل» فورًا إلى المنزل وتجاهلت تحية «بوكا» الصباحية، لتخاطب «كولبي» ببرود ولا مبالاة.

– هل أنت خارجة؟ وأحسّت «كولبي» بقلبها يغرق بين ضلوعها.

– لا. ليس الآن يا«روشيل». تفضلي. سأقدّم لك شرابًا باردًا. وصعدت «روشيل» الدرجات القليلة لتلحق بـ«كولبي» إلى غرفة الجلوس.

– هل وصل «دارت» بخير إلى المدينة؟

– طبعًا. توجهوا إلى هناك بالطائرة.

– أعرف. أنا على علم بكل ما يجري في هذا المنزل. لم تجبها «كولبي» بل توجهت فورًا إلى الثلاجة لتخرج منها شرابًا باردًا. وتناولت «روشيل» الكوب وهي تبتسم بسخرية. وراقبتها «كولبي» بصمت وهي تتساءل عن السبب وراء زيارة «روشيل» المفاجئة؟ هل جاءت يا ترى لتزعجها؟ ولم تطل «روشيل» المناورة، بل طرقت مباشرة الموضوع الذي أتت من أجله.

– يبدو أن هواء الصحراء يلائمك جدًا. يا للأسف! كم شهر يا ترى تبقّى لك هنا! شهران... ثلاثة؟

– سأبلغ الواحدة والعشرين في الخامس من شهر آذار (مارس) إذا كان يهمك الأمر يا«روشيل»؟

– كم أستعجل مجيء هذا اليوم! «دارت» يشعر بمسؤولية كبيرة تجاهك. أعرف جيدًا أي نوع هو. إنه يفعل الشيء ذاته لـ«سوزان» الشابة. لكن وضعها يختلف عن وضعك.

– في الحالتين الأمر لا يعنيك. وبدأت «كولبي» تفقد هدوءها، وشحب لونها قليلا. أما «روشيل» فحافظت على برود أعصابها، وابتسامتها الساخرة. وضعت كوبها على الطاولة، واحتدّ صوتها بتهديد مبطّن.

– طبعًا الأمر يعنيني يا آنسة «كولبي كينغ». لن يخيفني غضبك ولا يهمني إن رفعت صوتك بحدة. لابد من أنه خطر لك أنّي و«دارت» على تفاهم تام... تفاهم حدده وجودك المزعج في قيود عديدة. طبعًا لا نستطيع التخطيط لمستقبلنا وأنت موجودة تحت هذا السقف. أنا لن أطيق وجودك معنا مهما كانت الظروف. ولا يمكن أن تكوني ساذجة لدرجة تفكرين معها عكس ذلك.

وحاولت «كولبي» السيطرة على غضبها قدر الإمكان.

– أعتقد أنك تبالغين يا«روشيل». ربما كنت على تفاهم تام مع «دارت»، لكنه لا يحبك. أنا واثقة بذلك. وتألّقت عينا «روشيل» بشرارة نارية زادت من شحوب وجهها.

– وكيف تعرفين ذلك أيتها المحتالة الصغيرة؟ على كل حال، سواء أحبني «دارت» أم لم يحبّني، أنا الشخص الملائم له! الملائم لـ«دارت» ولـ«كنغارا»! «دارت» يشبه والده تمامًا. «كنغارا» تحتاج إلى سيدة، و«دارت» يريد ابنًا ووريثًا لكل أملاكه، وأنا أستطيع الجمع بين الأمرين معًا... وببراعة.

– لا أعتقد أنك تستطيعين ذلك دون مساعدة. قالتها «كولبي» بقوة، لكن قلبها كان يعتصر ألمًا. «روشيل» على حق! «دارت» من الرجال الذين يعتبرون أن إنجاب طفل يكون وريثًا لكل ما عمل من أجله، هو أفضل ما يتوجون به حياتهم. و«روشيل»، كما قالت هي نفسها، من النوع الذي يتوقع المرء أن يتزوجه «دارتلاند كينغ». رشيقة، جذابة، قوية، ربّة بيت ممتازة، ومزارعة بارعة. وكأن «روشيل» أحست بما يدور في أعماق «كولبي».

– أعتقد أنني أصبت الهدف أخيرًا. نحن نفهم بعضنا الآن. وحاولت «كولبي» جاهدة السيطرة على رعشة يديها.

– أنا لم أفهم شيئًا بعد. فيما يختص بـ«دارت» أعرف أني أستطيع البقاء هنا إلى الأبد. إنه لا يقول مثل هذه الأشياء باستهانة. لكني أعدك بأني سأرحل من هنا فور تمكني من ذلك. ورقصت عينا «روشيل» فرحة بالانتصار.

– أنا امرأة يا آنسة «كينغ»... امرأة تعرف ماذا تريد، وكيف تحصل عليه.

وأنا أريد «دارتلاند كينغ». الأمر بهذه البساطة. لن أقبل ببقائك هنا، ولا بمعاملتك السخيفة لـ«دارت» وكأنه بطل أو مثل أعلى. وتوقفت عيناها برهة على حمرة الخجل التي لونت وجه «كولبي».

– نعم تنظرين إليه وكأنه شخص مقدس. هل تعتقدين أننا لم نلاحظ ذلك؟ «دارت» أول من تنبه للأمر، ولابد من أنه يشعر بالحرج من جراء ذلك. طبعًا لم يقل لك ذلك. نحن النساء نتعامل فيما بيننا بأسلوب آخر. نتصارح أكثر ولا نستعمل الأساليب الملتوية لنقول رأينا. وصمتت قليلا لتراقب أثر كلماتها على وجه «كولبي». ولابد من أن النتيجة أعجبتها لأنها تابعت قائلة:

– من الأفضل أن أعترف بأني لا أنوي الانتظار حتى شهر آذار (مارس) لنعلن خطبتنا «دارت» وأنا. حاولي اختراع حجة ما للابتعاد عن طريقنا. ما رأيك بامتهان التمريض؟ قد تصلحين لذلك! لا... ربما لن تصلحي لأي شيء. إلى اللقاء! كوني عاقلة يا«كولبي»، وذلك لمصلحتنا معًا. وخرجت «روشيل» مسرعة من غرفة الاستقبال، فاصطدمت بـ«بوكا» الذي كان يسترق السمع خلف الباب. كان من واجبه حماية الآنسة الصغيرة، ومراقبته لها في تلك اللحظة كانت تنفيذًا لأوامر سيده. أمسكت «روشيل» بكتفي «بوكا» وأخذت تهزه بعنف.

– كيف سمحت لنفسك بدخول المنزل؟ اغرب عن وجهي فورًا. ومن وراء شتلات الورد، ظهر فجأة «كولبار جو». نظرت إليه «روشيل» نظرة واحدة وأسرعت باتجاه سيارتها. أغلقت الباب بحدة، وأدارت محرّك السيارة. أسرع الحيوان الغاضب يلحق بها، فقادت السيارة بسرعة خاطفة وصدمته. طارت «كولبي» إلى مكان الحادث. لم يكن «بوكا» ليستطيع الوقوف على قدميه. كان ينقل نظره بين صديقه الملقى أرضًا، وبين وجه «روشيل» المتشنج غضبًا، وبين «كولبي» التي لم تكن لتعرف كيف تتصرف. وفجأة فرّ هاربًا وهو يصرخ عاليًا على غرار السكان الأصليين في المآتم. أنزلت «روشيل» زجاج السيارة، لتنفث آخر سمومها.

– أتمنى أن يكون هذا الحيوان اللعين قد لاقى حتفه. لن يجديك وضع اللوم عليّ. كان الأمر مجرد حادث بسيط، حاولي أن تتذكري ذلك يا حضرة الآنسة الصغيرة. استعيني بأحد العمال ليساعدك على التخلص من الجثة.

وانطلقت «روشيل» وهي تلعن عاليًا الحيوان، و«كولبي»، و«بوكا».

وعندما أصبحت «كولبي» بمفردها، مررت يدها بخوف على جسم الحيوان المسكين. كان حيًّا. لابد من أنه فقد الوعي لفترة بسيطة! ماذا تفعل الآن؟ ليس لديها أي خبرة في تقديم الإسعافات الأولية للحيوانات؟ وركضت فورًا إلى الإسطبل لتبحث عن أحد العمال. وبعد دقائق عادت برفقة اثنين منهما؛ لتجد «كولبار جو» واقفًا على قوائمه يهز رأسه بأسى كبطل مهزوم.

– يا إلهي! شكرًا لك. وتنفّست «كولبي» الصعداء، قبل أن تلتفت إلى العاملين لتشكرهما بابتسامة عريضة.

وبعد ساعات ثلاث كان «جو» قد استرد كامل عافيته، لكن «بوكا» ظل مختفيًا، فلم يعرف أن صديقه العزيز ما زال حيًّا. وتوجهت «كولبي» إلى الحظائر لتبحث عنه بعدما يئست من العثور عليه بمفردها. سألت عنه العمال كلهم، فكان الجواب دائمًا بالنفي. لم يره أحد منذ الصباح. اقترب منها «مايك» متسائلا:

– ما بك يا«كولبي»؟ تبحثين عن «بوكا»؟ لا تقلقي، غالبًا ما يختفي ساعات طويلة في أحضان الطبيعة. سيعود قريبًا.

– الأمر يختلف هذه المرة يا«مايك». «كولبار جو» تعرّض لحادث هذا الصباح، و«بوكا» يعتقد أن صديقه قضى حتفه. نزع «مايك» قبعته عن رأسه، ليبعثر شعره بأنامله.

– ردّدي ما قلته يا «كولبي». لم أفهم شيئًا. أنت تتكلمين بسرعة. أخذت «كولبي» نفسًا عميقًا قبل أن تردد ببطء:

– هذا الصباح مرت «روشيل» لزيارتي. لم تكن لتريد شيئًا. قطعت كل هذه المسافة لتقول لي مرحبًا. لم تلاحظ «كولبي» النظرة المتفهمة التي مرت خاطفة

في عيني «مايك»، فتابعت حديثها بحزن:

– ركض «جو» باتجاه السيارة فصدمته «روشيل» رغمًا عنها. هرب «بوكا» من مكان الحادث ولم أره بعد ذلك. أريد أن أخبره بأن «جو» بخير.

– يا لك من فتاة حساسة يا«كولبي»! لا تقلقي. «بوكا» الصغير يستطيع الاعتناء بنفسه، وتضميد جراحه. سأخبر «بن» بالأمر على أي حال.

– شكرًا يا«مايك». سأمتطي «سورشا» وأذهب إلى التلال الرملية. إنها مكان «بوكا» المفضل. لا أريده أن يبقى حزينًا طوال النهار من أجل لا شيء. ابتسم لها «مايك» بحنان وهو ينظر بعمق في عينيها.

– حسنًا يا عزيزتي. وانتبه فورًا إلى ما قال، فأسرع يصلح خطأه:

– حسنًا يا آنسة «كينغ». التفتت إليه «كولبي» باسمة.

– أفضل العبارة الأولى يا«مايك». وانطلقت وهي تسمع ضحكاته ترن وراءها!

– أراك هذا المساء يا آنسة «كولبي».

كان الحرّ شديدًا في التلال الرملية، لكن نسبة الرطوبة المنخفضة جعلت الجو محتملاً. ترجلت «كولبي» عن فرسها، وربطتها إلى شجرة قريبة لتبحث عن «بوكا» سيرًا على الأقدام. وتنقلت من مغارة إلى أخرى وهي تنادي عاليًا باسمه. أشعة الشمس كانت تلذعها بقسوة. رفعت قبعتها عن رأسها لتمسح العرق الذي أغرق جبينها، وبلّل قميصها حتى التصق بجسمها. عليها أن تعود إلى المنزل قريبًا، الجو ينذر بعاصفة قوية. لكن كيف ترجع الآن! و«بوكا»! تستطيع أن تجد مخبأ في التلال، يقيها شر العاصفة والمطر. بدأت البحث عن «بوكا» ولن تتوقف الآن. هي مصرّة على العثور عليه، وحدسها ينبئها أنه ليس بعيدًا. وعادت تصرخ باسمه عاليًا. بالتدريج لم تعد تسمع صوتها. الرياح اشتدت قوتها، والطيور أخذت تحلق بفوضى منذرة باقتراب العاصفة. وفجأة انهمرت قطرات المطر بثقل لتتحول بسرعة إلى شلال غزير وصل الأرض بالسماء.

امتطت «كولبي» فرسها «سورشا»، وطارت بها صوب التلال بحثًا عن مغارة

واسعة تأوي إليها. لم تكن لتتوقع هذا التغير المفاجئ في الطقس. حتى الحرارة انخفضت درجتها بسرعة غريبة، فأحست «كولبي» بأوصالها ترتعش بردًا. وعندما وصلت الشابة أخيرًا إلى هدفها كانت ثيابها المبللة تزيدها بردًا ورعشة. وترجلت «كولبي» عن فرسها في المغارة الكبيرة التي اختارتها. كانت «سورشا» رائعة فعلا. لم تتأثر بالعاصفة، بل ظلت على هدوئها وثباتها. أخرجت «كولبي» قطعة قماش جافة من خرج الفرس وأخذت تمسح بها جسم «سورشا» المبلل. يا إلهي كم تشعر بالبرد! عليها أن تشعل نارًا. لديها علبة ثقاب في حقيبتها، وعلى الأرض هناك مجموعة جافة من الأعشاب اليابسة. وانحنت «كولبي» لتشعل النار وأسنانها تصطك بردًا. وأحست فجأة بظل أسود على باب المغارة حجب عنها ضوء النهار. لم تتحرك من مكانها. خفق قلبها بسرعة، وتجمع الخوف كله في عينيها ليحول لونهما إلى الأخضر الداكن وحملها «دارت» بين ذراعيه وكأنها دمية صغيرة.

– ألن أستطيع أبدًا أن أتركك وحدك؟ انظري إلى نفسك. أنت ترتعشين كطفلة لم تتجاوز بعد الثانية من العمر. وشهقت «كولبي» وهي تكاد لا تصدق وجوده قربها.

– من أين أتيت يا«دارت»؟ لا أعرف كيف تفعل ذلك! كيف تمكنت من العثور عليّ؟

– لن أدخل في التفاصيل الآن. فلنقل إنها حاسّتي السادسة. وابتعد عنها بعدما تأكد أنها تستطيع الوقوف على قدميها. وكطفلة صغيرة تمتمت بضعف ورقة:

– الجو بارد جدًا.

– طبعًا. كنت أعلم أني لن أجدك سالمة في المنزل لدى عودتي. كان عليك أن تخرجي وحدك في هذا الطقس العاصف. ورمى لها «دارت» بكيس كبير من البلاستيك في داخله ملابس جافة.

– هيّا أبدلي ملابسك. أنا لا أرغب في تمريض فتاة صغيرة مصابة بالبرد.

ونظرت «كولبي» حولها. أين ستغيّر ملابسها؟ ماذا تفعل؟ إنها لا ترى زاوية واحدة تستطيع اللجوء إليها!

– هيّا يا«كولبي». انزعي ملابسك وإلا أرغمتك على ذلك. قالها بقسوة، والتفت إلى مدخل المغارة ليشغل نفسه بمراقبة العاصفة. وانصاعت «كولبي» لأوامره، فاستبدلت بثيابها المبللة الفستان الجاف الذي أتاها به «دارت». وعندما انتهت قالت بخجل:

– انتهيت من ارتداء ثيابي يا«دارت». التفت إليها متفحصًا. كم تبدو رقيقة وصغيرة في فستانها الأبيض!

– تعالي الآن قرب النار. ولبّت «كولبي» فورًا. ما هو سرّ هذه السلطة التي يمارسها عليها والتي لا تستطيع التغلب عليها؟ إنه «دارت» ابن عمها! لماذا لم تعد تستطيع إذًا أن تنظر إليه كما كانت تفعل وهي طفلة؟ وشعرت فجأة بالخوف من هذا العالم المجهول الذي بدأت تكتشفه دون أن تفهم أسراره.

– ما بك يا«كولبي»؟ أخائفة من التعنيف؟

– طبعًا لا. لكني لا أفهم سرّ عصبيتك. يبدو أني أزعجك دائمًا. لم تكن هكذا... أو بالأحرى... وتوقفت فجأة عن الكلام. كان «دارت» يحدق إلى المطر وكأنه لا يسمعها. وحاولت «كولبي» أن تقطع الصمت الثقيل الذي جثم فجأة على جو المغارة.

– كنت أبحث عن «بوكا».

– أعرف، لكني لا أعرف لماذا لم يحاول أحد أن يمنعك من القيام بذلك؟ «بوكا» بأمان. هو في منزله الآن، في أحضان جدّه، بينما أنت تبحثين عنه في العاصفة. كان على «مايك» أن يأمرك بالعودة إلى المنزل فور اكتشافه لنياتك.

– «مايك» لا يعاملني كطفلة. إنه يعرفني أكثر منك. أنا امرأة. يبدو أنك لم تلاحظ ذلك بعد. أحبّ «مايك» لأنه يشعرني بأني امرأة. اقترب منها «دارت» ووجهه الأسمر يختلج غضبًا. وضع يديه على كتفيها بقوة حتى كادت تصرخ ألمًا.

– يا لك من طفلة ساذجة! أيّ رجل يستطيع أن يشعرك بأنك امرأة؟ وأرغمها على رفع رأسها باتجاهه. دار العالم بها... استسلمت «كولبي» لعناقه وكأنها لا تريد التحرر منه أبدًا. وأبعدها «دارت» عنه ليقول ساخرًا:

– ما رأيك الآن؟ تعتقدين أن أيّ رجل يستطيع أن يشعرك بأنك امرأة؟ ارتجف فمها استياء. وهبته قلبها فسخر منها. إنه يعرف أنها تحبه! لابد من أنه يعلم ذلك الآن. تجاوبها التام بين ذراعيه خير برهان على ذلك. تبًّا لك يا «دارت»، تبًّا لتسلطك وسيطرتك عليّ! أنا لست أفضل من أي سجين مقيد بالحديد. عقد «دارت» حاجبيه وهو يراقب وجهها.

– هيّا يا«كولبي». ضعي معطفي حول كتفيك. سنعود إلى المنزل. أوقفت سيارتي على بعد أمتار قليلة. أحست «كولبي» برغبة قوية في البكاء. كم تشعر بالتعب والضعف في هذه اللحظة!

– خذني إلى المنزل يا«دارت». أرجوك.

– جئت لهذا يا عزيزتي. وفي دفء السيارة أراحت «كولبي» جسمها الصغير على المقعد الوثير. قربه منها يؤلمها لدرجة تشعر معها بأن الألم نفسي وجسدي معًا. على الأقل سترضي «روشيل» أخيرًا. لا يمكن أن تتحمل أن تكون قريبة منه إلى هذه الدرجة وتكون بعيدة عنه في الوقت ذاته. وطوال الطريق إلى المنزل أشاحت بوجهها عن «دارت» لتراقب الطبيعة التي تحب.

- 11 -

في عطلة الميلاد ورأس السنة الغربية، جاء «ريال كينغ» وزوجته «بربارة» لزيارة «كنغارا». كان «ريال» صديقًا حميمًا لـ«دارت»، وابن عم بعيدٍ له ولـ«كولبي». أما زوجته «بربارة»، العروس التي اقترن بها منذ ستة أشهر فقط، فكانت قبل زواجها من أشهر سيدات المجتمع في «أستراليا». وكانت هي التي رغبت في زيارة «كنغارا» التي تعتبر من أغرب المواقع السامية،

بمنزلها التاريخي، وإطارها المميز.

وكان اللقاء حارًّا بين القريبين الصديقين. أما «كولبي» و«بربارة» فوقفتا تنظران إلى بعضهما بشيء من الحذر حتى ابتسمت «بربارة» أخيرًا فذاب الجليد. ابتسامتها الرائعة ذكرت «كولبي» بالصور المشرقة التي كانت تراها لها في صفحات الأخبار الاجتماعية. كم هي جميلة وأنيقة ومترفة! تفهم الآن لماذا كانت «بربارة» تعتبر نجمة صالونات «سيدني» الفكرية والاجتماعية. وبالإضافة إلى هذا كله كانت السيدة الشابة بارعة في فنون الفروسية والتزلج على الماء والجليد. ولاحظت «كولبي» أن ابتسامة «بربارة» تزداد إشراقًا كلما اقترب منها زوجها «ريال». كان من الواضح أنها تحبه جدًّا. عيناها فضحتا حبها، وكذلك نبرة صوتها التي تتدفق حنانًا كلما تحدثت إليه. و«ريال» بالطبع كان الزوج الذي تحلم به أي فتاة. طويل القامة، أسمر اللون، تنمّ تقاطيعه عن أصالة تميز جميع أفراد عائلة «كينغ». وإلى جانب هذا كله كان الوريث الوحيد لمزرعة «كينكومبلا» لم يكن غريبًا إذن أن تختاره «بربارة» من بين كل الرجال الذين تقدموا لخطبتها. وأكدت السيدة «كينغ» أكثر من مرة أنه لم يكن هناك مجال واحد للتردد والاختيار بين «ريال» وبينهم. التقاها زوجها خلال إحدى رحلات العمل التي يقوم بها إلى «سيدني». وفور وقوع نظره عليها قرر نهائيًا أنها ستكون زوجته، على الرغم من أن «بربارة» كانت آخر من علم بهذا القرار. وتوطدت أواصر الصداقة بين «بربارة» و«كولبي»، وصارتا تجوبان معًا المنطقة على ظهور الخيل وفي رفقة «بوكا». وخلال إحدى النزهات أخذت «بربارة» تتحدث بانفعال عن حبها لزوجها. شعلة الغرام في عينيها جعلت «كولبي» تشعر برغبة في البكاء، فلاحظت السيدة الشابة تأثرها، فرقت عيناها عطفًا عليها.

– «كولبي» العزيزة. يبدو أني ضايقتك من حيث لا أدري. ابتسمت «كولبي» بتعب وهي تحاول أن تضع في صوتها نبرة ساخرة.

– حدس المرأة يا«بربارة» لا يخيب.

– إنه «دارت» طبعًا. استطاعت «بربارة» بلحظة، وبقوة ملاحظتها، أن تدخل فورًا إلى أعماق «كولبي».

– إنه «دارت». ولم تجب «كولبي» بل رفعت رأسها إلى السماء. رددت «بربارة» ببساطة متناهية:

– طبعًا إنه «دارت»، لا ألومك، آل «كينغ» نوع خاص جدًا من الرجال. وظلّ تعليقها للحظات طويلة معلقًا في الهواء بانتظار ردّ الفعل عليه. فأجابت «كولبي» ببطء:

– أنا ابنة عم «دارت» الصغيرة يا«بربارة». أنت لم تلتقِ بـ«روشيل تينانت» بعد. إنها من مزرعة «تينانت». جارتنا على الحدود الشمالية الشرقية.

– وهل من المفروض أن يعني ذلك شيئًا خاصًا؟

– نعم، «بيللا» ترتب حفلة عشاء لمساء غد. ستلتقين بها في الحفل. إنها الفتاة المناسبة لـ«دارت». هي بنفسها قالت لي هذا. إنها شابة سمراء، رشيقة، وجذابة. كان هناك أثر من الأسف والحزن في صوت «كولبي». ضحكت «بربارة» عاليًا وضجت عيناها مرحًا.

– فور عودتنا إلى المنزل انظري إلى نفسك جيدًا في المرآة يا«كولبي». أنت فتاة جميلة جدًا، لك شخصية مميزة، ورقة طفوليّة. هذه معادلة كفيلة بهزيمة أقوى الرجال. وتألّقت «كولبي» فرحًا وهي تستقرّ بعينيها الخضراوين على صديقتها الجديدة.

– وأنت دعم رائع لمعنوياتي يا سيدة «كينغ». لكنك متفائلة جدًا للأسف. «دارت» لن ينظر إليّ إلا كفتاة صغيرة متموجة الخصلات، تلاحقه أينما ذهب، أنا لست بامرأة غامضة وساحرة.

– هذا ما تعتقدينه. عليّ أن ألقنك بعض أسرار الاستراتيجية التي استخدمتها مع زوجي، وأثبتت نجاحها كما ترين. ورفعت بحركة عفوية خصلات شعرها الأشقر الذي تهدل على جبينها، وتلاعب بريق شقاوة في عينيها. وراحت تؤكد بخبرة المرأة الناضجة:

– كلما فكرت في الأمر أصبحت أكثر ثقة بأنك المرأة المثالية لـ«دارت». أنا معجبة به جدًا. إنه من ذاك النوع من الرجال الذين يحتاجون إلى زوجة فائقة الأنوثة. وهمست بصوت منخفض وكأنها تخطط لمؤامرة.

– أنا أدرى منك بهذه الأمور. «دارت» لا يختلف كثيرًا عن «ريال». ويبدو أني وإيّاك نتفق كثيرًا. وتبادلتا ابتسامة سريعة. وللحظة عرفت «كولبي» معنى الأمل، وتجرأت على الحلم. وتابعتا نزهتهما بين أحضان الطبيعة فارتعشت الأزهار البرية لدى مرورهما، وعادت لتغفو بهدوء على كتف المساحات الواسعة من العشب الأخضر.

كان المنزل يشع بالأضواء والأزهار. نزلت «بيللا» إلى غرفة الاستقبال لتشرف على الترتيبات النهائية قبل وصول الضيوف. بعد قليل ستصل «روشيل» برفقة والدها «جوستان تينانت». وألقت «بيللا» نظرة رضا على غرفتي الجلوس والطعام، وقررت أنهما لا يمكن أن تبدوا أفضل من ذلك. «كولبي» ماهرة حقًا في وضع اللمسات النهائية. يكفي أن تقوم ببعض التغييرات هنا وهناك لتتألق الزهور في أروع حلّة. وتوقفت نظرات «بيللا» على مائدة الطعام. ثلاث قطع من الكريستال الشفاف غرقت تحت مهرجان من البنفسج توزعت بينهما شموع بيضاء صغيرة كحبات الندى. عليها أن تتذكر إضاءتها مباشرة قبل العشاء. إنه الجو الأمثل لإثارة الشهية والأحاديث.

في زاوية غرفة الجلوس تألقت شجرة الميلاد بكل أضوائها لترحّب بالضيوف. لابد من أن «دارت» أنفق ثروة كبيرة في «بريسبان» كما تلاحظ من خلال كثرة الهدايا تحت الشجرة. ما أجمله من وقت! وأحست «بيللا» كأنها عادت طفلة صغيرة تتحرق شوقًا للعيد. وبعد نصف ساعة كان البيت يضجّ بالموسيقى والضحكات. «سوزان» على الرغم من إشراقها المميّز كانت تتصرف بنضج ورزانة لم تتوقعهما «بيللا» من ابنتها. للمرة الأولى تراها ترتدي فستانًا أنيقًا زادها جمالا. لونه الأزرق الداكن المحلى بتطاريز رقيقة، أبرز لون عينيها الزرقاوين. أمضت الأم وابنتها معظم ساعات النهار في البحث عن

هذا الفستان.

«كولبي» كانت رائعة في فستانها الأسود البسيط. كانت تجمع بين الأنوثة والطفولة. رقيقة كوردة بريّة. اللونَ الأسود يليق بها فعلا، فشعرها الناري اشتعل أكثر فوق الثوب الداكن. أما عيناها فبدتا أكثر اتساعًا واخضرارًا، وزادهما عمقًا واقترابًا من الطبيعة الكحل الداكن الذي استعملته حولهما. وعرفت «بيللا» أن «بربارة» هي المسؤولة عن هذا الإغراء الجديد في عيني «كولبي» اللتين لم تعرفا الكحل من قبل.

وكانت «بربارة» غافلة عما يدور في ذهن «بيللا». فهي مستغرقة في الحديث مع «دارت» مما أثار غيرة «روشيل» التي لم ترفع عينيها عنها لحظة واحدة، على الرغم من أنها هي أيضًا كانت تبدو في قمة أناقتها وجاذبيتها في ثوبها الحريري الأحمر. وتشعب الحديث ليتناول مواضيع مختلفة. وأظهر «جوستان تينانت» اطلاعًا واسعًا ينمّ عن ثقافة عالية. أعجبت به «كولبي» كثيرًا. إنه رجل طيب وودود، يفرض احترامه على الجميع. راقبها «جوستان» باهتمام وهما يتحدثان عن أشياء مختلفة. ومرت على شفتيه ابتسامة عابرة.

– أتعرفين يا آنسة «كينغ» أنك لست كما توقعت!

– وماذا توقّعت يا سيّد «تينانت»؟

– لم أتوقّع أن ألتقي بفتاة طيبة ومرحة ودافئة لا تعرف معنى المكائد والدسائس.

تكلّم دون تفكير، ودون أن يتوقف لحظة واحدة ليراقب أثر كلماته في وجه الشابة الجميلة. كم هي رقيقة وبريئة! ليست أبدًا كما وصفتها له ابنته «روشيل». بصراحة كانت العكس تمامًا عما أوحت به إليه. مسكينة «روشيل»! تفقد صوابها عندما يتعلق الأمر بـ«دارتلاند كينغ». وانصرف اهتمام «كولبي» إلى «ريال» الذي كان يشكو عاليًا من أنه مهمل في هذه الأمسية. وأغرقها قريبها بالأسئلة والتعليقات وما هي إلا دقائق معدودة حتى كانت تضحك عاليًا تجاوبًا مع سحر ابن عمها البعيد.

«دارت» كان يترأس الطاولة. سمع ضحكاتها فابتسم لها ساخرًا. وردت عليه بنظرة متحدية. نقل «ريال» بصره بينهما باهتمام واضح. ثم حوّل نظره إلى «روشيل» ليستقر أخيرًا على «كولبي» التي لاحظت تساؤله الصامت فأجابت بعفوية:

– لا تقل شيئًا. نظر إليها «ريال» مطولا واستراحت قسمات وجهه.

– حسنًا. لكني سأثير القضية بالتدريج. الحنان في عينيه جعل «كولبي» تشعر بأن لها حليفًا قويًا في العائلة. بعد العشاء سيقيم السكان الأصليون حفلة راقصة ترحيبًا بالسيد «دارت» وضيوفه. كانت الليلة رائعة. السماء المخمليّة أخذت تغمر الكون بعيونها الصغيرة البراقة، التي تناثرت منها أضواء فرحة في عتمة الليل.

أخذت «كولبي» نفسًا عميقًا وهي تشعر بالحزن والسعادة في وقت واحد. الهواء يتلاعب دافئًا على وجنتيها مشبعًا بعطر الأزهار الليلية. أضواء البيت انسكبت كشلالات من الفضة على حديد الشرفة، وتدحرج بعضها كلآلئ صغيرة على عشب الحديقة. ومن الداخل كانت تصلها أصوات الأحاديث والضحكات. ليلة رائعة فعلا يمتزج فيها الفرح بالسكون والسلام. قرب الينبوع اشتعلت السماء بوهج النيران التي أشعلها السكان الأصليون احتفالا بعيد الرجل الأبيض. اليوم عيد، وسوف يلتفون بعد قليل حول مائدة كبيرة مزينة بالزهور وبجميع أنواع الفاكهة. ومن سلال القش البدائية تصاعدت رائحة لحم العجل المشوي.

رفعت «كولبي» وجهها إلى القمر الذي كان يتأرجح سعيدًا بين الأغصان. وأغمضت عينيها لتستبقي فيهما الحلم لأطول فترة ممكنة. هذه هي «كنغارا» حلم طفولتها، ومنبع جذورها. فكيف يمكن أن تبتعد عنها؟ وسمعت «كولبي» وراءها وقع أقدام فانقطع السحر. إنها «روشيل».

– كيف حالك يا طفلتي الصغيرة؟ لا تظني أني لم ألاحظ محاولاتك للفت نظر «دارت». فستانك الأسود، والكحل في عينيك... أتعتقدين أني غافلة عن

www.rewity.com

كل هذا؟ ورفعت «روشيل» يدها لتصلح بعض ما تناثر من شعرها. ثم نظرت إلى «كولبي» بكثير من السخرية والتعالي.

– وتذكري أيضًا أن إقامتك هنا مؤقتة. لا تحاولي التقرب من كل أفراد العائلة لتحقيق أهدافك الخاصة. واتسعت عينا «كولبي» ألمًا واستياءً.

– يا إلهي! «روشيل»! أنت فتاة غريبة فعلا. إذا كنت تحاولين إخافتي فلن تنجحي في ذلك. ليس هذا الوقت أو المكان المناسب. شحب لون «روشيل» وبدا كأنها تريد أن تلجأ إلى العنف لكنها تمالكت أعصابها في اللحظة الأخيرة.

– أنذرك مرة أخيرة يا«كولبي». لا تحاولي التحايل عليّ. لو فعلت ذلك ستندمين. أنا أعرف ماذا تريدين. و«دارت» يدرك تمامًا الطريقة التي يعمل بها عقلك... الفستان الأسود وغيره! تسمّرت «كولبي» في مكانها. وجهها كان يعبّر عن الحزن والقرف معًا. ستكتفي بالصمت. كرامتها لا تسمح لها بالرد على مثل هذه الاتهامات. يا لها من امرأة قاسية! لا يهمها الأساليب التي تستعملها لإزالة المنافسة.

– سأقول لك شيئًا واحدًا يا«روشيل»، وهو أنك ضيفة مزعجة. رنّت ضحكة «روشيل» قصيرة قاسية.

– من حسن الحظ أن هذا رأيك وحدك. ورأيك لا يهمني. وقطع عليهما الحديث اقتراب «مايك» منهما.

– آسف، هل قطعت حواركما؟ وحاولت «روشيل» أن تضمن إجابتها مزيدًا من التجريح بمنافستها.

– لا، الحديث لم يكن ممتعًا على أي حال. ما زالت «كولبي» طفلة صغيرة، سأترككما معًا لأخلي لكما الجو. وابتعدت قبل أن يعلّق أحد منهما على كلماتها المبطنة...

– يا لها من امرأة شريرة! لا تهتمي بها يا «كولبي». من الواضح أنها تغار منك.

– ولماذا تغار منّي يا «مايك»؟ وضع «مايك» ذراعه حول كتفيها وسارا معًا إلى الحديقة.

– طبعًا تغار. أنا مثلا لم أستطع أن أرفع بصري عنك طوال السهرة.

وبعد فترة كان الجميع يجلسون في الشرفة لمشاهدة الاحتفال الذي أقامه السكان الأصليون لهم. استرخت «بيللا» في مقعد وثير قرب «سوزان» و«ستيفن»، وإلى يمينها «جوستان تينانت». «بربارة» و«ريال» استقرا في زاوية الشرفة قرب «دارت» و«روشيل». أما «مايك» فظل إلى جانب «كولبي» لا يفارقها. وبدأ الحفل بمجموعة من الرقصات الوطنية قام بها الراقصون بخفة وبراعة، وعلى رؤوسهم أشكال غريبة صنعوها من ريش الببغاوات الملون. أما صدورهم البرنزية فكانت مزينة برسوم يمثل كل واحد منها أسطورة وطنية عبّر عنها أصحابها بالأحمر والأصفر والأبيض. وتصاعد الإيقاع في الهواء صاخبًا، ورقيقًا أحيانًا أخرى. وامتزجت الأجسام مع النغم، حتى شكلت وحدة متكاملة يصعب الفصل بينها. صارت الرقصة أغنية والأغنية رقصة. وحبس المشاهدون أنفاسهم أمام هذا الاستعراض البدائي الراقص الذي يتفاعل معه المرء بكل عواطفه، والذي يفجّر في الأعماق أحاسيس غريبة تعيد الإنسان إلى فطرته بعيدًا عن القيود الزائفة. شعور لا يستطيع أن يختبره إلا من عاش قريبًا من الأرض. تمكن الراقصون بساعات قليلة من نقل كل اختلاجات الطبيعة الإنسانية من خوف وحلم وأمل وعنف.

وعندما خفتت الموسيقى، وهدأت الأجسام ارتفع التصفيق يعبر عن الانفعالات المشتركة التي جمعت بين الأصليين والبيض دون تمييز. ومرّت بقية السهرة و«كولبي» تشعر بأنها خارج الزمان والمكان. «دارت» يتجاهلها تمامًا كأنها غير موجودة. اهتمامه المبالغ بـ«روشيل» كان وحده كفيلا بتمزيقها. ومنافستها تتصرف كأنها سيدة «كنغارا». وحاولت «كولبي» أن تتمالك أعصابها قدر المستطاع. لا تريد أن تلاحظ «روشيل» ضعفها. ستسخر منها. يكفيها ما حصل حتى الآن. وحاول «مايك» و«ستيفن» التخفيف عنها

قدر المستطاع، لكنها لم تستطع أن تبعد عينيها عن رأسي «دارت» و«روشيل» المتقاربين. كم تتألم في هذه اللحظة! كانت «روشيل» تتكلم بحماس وثقة المرأة الناضجة التي تعرف جيدًا أنها استطاعت الفوز بالرجل الذي تحب. ابنة عم «دارت» الصغيرة لم تعد تشكل خطرًا عليها. «دارتلاند كينغ» أصبح ملك يديها وكذلك كلّ أملاكه. ووضعت «روشيل» يدها على عنق «دارت»، فعرفت «كولبي» معنى الغيرة التي تجعل القلب ينزف دمًا. ضحكت بصوت مرتفع لتخفي اضطرابها. لن تسمح لأحد بأن يكتشف شعورها الحقيقي. ولم تعد «كولبي» تطيق النظر إليهما أكثر من ذلك، فحوّلت اهتمامها إلى «ريال» و«بربارة». كانا يرقصان على أنغام موسيقى ناعمة، كعاشقين لا يريان في الدنيا إلا حبهما. ما أسعدهما من زوجين! وانفضّ الحفل، فلجأت «كولبي» إلى غرفتها. أخذت تسير ذهابًا وإيابًا بين الجدران الأربعة، عاجزة عن الاستقرار في مكان واحد. حتى الدموع استعصت عليها. آه لو كانت أكثر نضجًا وخبرة، لعرفت عندها كيف تتعامل مع هذه الأزمة العاطفية التي تهزّ كيانها! «دارت» كان في كل شيء حولها، في الهواء الذي تتنفسه... لا تستطيع مقاومة حبه المغروس عميقًا في كل وجودها. نظرة واحدة إلى وجهه الأسمر كانت كفيلة بهزها هزًّا عنيفًا. لم تشعر في حياتها بكل هذا الضعف والإذلال. ونظرت إلى صورتها المنعكسة في المرآة.

– آه لو كنت أكثر نضجًا! وبحركة طفولية مدت لسانها هازئة، تسخر من صورتها. عليها أن تأوي إلى فراشها الآن. هي متعبة وتريد أن تنام. وفجأة تذكرت هدية «دارت». كانت تنوي أن تعطيه إياها على انفراد. لكنها غيّرت رأيها الآن. ستضعها تحت الشجرة مع بقية الهدايا. اختارت له هدية تعني لها الكثير. ستقدم له أزرار أكمام من الذهب الخالص والأوبال كانت تخص والدها. كم تتمنى لو تستطيع البكاء! لا لن تبكي. لم تعد طفلة. ستنزل الآن بهدوء لتضع الهدية تحت الشجرة. ولم تكد «كولبي» تدخل غرفة الاستقبال حتى استوقفها «دارت».

– ماذا تفعلين هنا يا عصفورة الجنة؟ أنت ترتعشين. لم تجبه بل تابعت سيرها إلى الشجرة. فأرغمها على التوقف.

– وماذا تخبئين في يدك يا ساحرتي الصغيرة؟ لا تقولي إنك تحملين قلبك على يدك لتقدميه لي هدية! ثارت «كولبي» لكرامتها أمام هذه السخرية الواضحة بها. فأجابت بعنف:

– لا، قلبي ليس لك يا«دارتلاند كينغ».

– هل هذا قرارك النهائي؟

– نعم. كم أكرهك يا«دارت»! قالتها بقوة وهي تتمنى لو كانت صادقة فعلا في قولها. وكانت ردّة فعله فورية. احتضنها بقسوة وهو يردد بعنف:

– لن تتوقفي عن حبي وأنت حية يا«كولبي». وحاولت أن تتخلص من قبضته دون جدوى. كان أقوى منها.

– كنت شديدة الإغراء هذا المساء يا صغيرتي بفستانك الأسود. لابد من أن «مايك» أخبرك بذلك. الرجال كلهم وقعوا تحت سحرك، وأنا واحد منهم. وصفعته «كولبي» بقوة. وللحظات حلّ صمت ثقيل بينهما. لم يتحركا من مكانهما. وأحست «كولبي» بالخوف وهي ترى «دارت» يحاول جاهدًا السيطرة على غضبه.

– اذهبي إلى فراشك يا«كولبي» قبل أن أفقد أعصابي. وركضت «كولبي» إلى غرفتها والدموع تنهمر من عينيها... دموعها سترافقها في الليالي المقبلة كلما تذكرت هذه اللحظة الأليمة. طعنها «دارت» في الصميم وجرحها لن يضمده الزمن. لن تعرف السلام بعد الآن. ستجد طريقة تفرّ بها من الحصار الذي فرضه عليها «دارت»، وستغادر هذا السجن الإجباري دون رجعة. ستتحرر من قبضته أخيرًا.

- 12 -

كانت بحيرة «كينكومبلا» مكانًا رائع الجمال، يحيط بها سور كثيف من النباتات الخضراء، تطرزه الزهور كلوحة برية تحييها العصافير والفراشات، وتضيئها أشعة الشمس المتلألئة على المياه الفضية. جلست «كولبي» ساهمة على صخرة قرب الشاطئ، تلقي الحصى في المياه وتراقب الدوائر الكبيرة اللاهثة على سطح البحيرة حتى تعبت واختفت. كان الحرّ شديدًا في الطرقات، أما هنا فالنسمات المنعشة تتلاعب بين الأغصان هربًا من أشعة الشمس.

أسندت «كولبي» ظهرها إلى جذع شجرة قديمة، غير مبالية بوخز الأغصان اليابسة التي اخترقت قميصها الرقيق. مضى على وجودها في «كينكومبلا» أسابيع ثلاثة عاشتها في حال من الخمول النفسي وكأنها معلقة خارج المكان والزمان. فقط صورة «دارت» كانت تعيدها إلى الحياة بين حين وآخر، وتخرجها من جمودها. كيف تستطيع أن تنسى الوجه الأسمر الحبيب، وتقاطيعه مغروزة عميقًا في كيانها؟ واتجهت أفكار «كولبي» إلى «بربارة» بعرفان ومحبة، إنها صديقة رائعة فهناك رابط قوي جمع بينهما بسرعة. وما من مرة طوال الأيام الفائتة حاولت «بربارة» لفظ الاسم المحرم، على الرغم من أنها غالبًا ما كانت ترغب في التطرق إلى موضوع «دارت».

«بربارة» هي التي اقترحت، بل أصرّت على اصطحاب «كولبي» معها إلى «كينكومبلا». لا يستطيع أحد أن يفلت من قوة ملاحظتها. نظرة واحدة إلى وجه «كولبي»، صباح اليوم الذي أعقب الحفلة، جعلتها تتخذ القرار بإبعاد «كولبي» عن «كنغارا». وعندما تتخذ «بربارة» قرارًا كان من عادتها العمل بسرعة على تنفيذه. رأت «كولبي» هذا التدخل وكأنه إشارة من السماء. «بربارة» قادت أولى خطواتها على طريق الخلاص. إنها المخرج الوحيد لفك الحصار الذي فرضه عليها «دارت». أفراد العائلة جميعهم لاحظوا التوتر السائد بينها وبين ابن عمها، فللمرة الأولى تتجنب رفقته ويتجاهل هو وجودها.

لم يعارض «دارت» قيام «كولبي» بهذه الرحلة القصيرة، واعتبرها إجازة مؤقتة تعود بعدها ابنة عمه إلى المنزل. أما «بيللا» فرحبت بالفكرة لأنها أحست بغريزتها الأنثوية أن «كولبي» تحتاج إلى الابتعاد عن أجواء «كنغارا». ورحلت «كولبي» عن منزل طفولتها. وعلى الرغم من ألمها لهذه الغربة القسرية، أحست بالراحة لوجودها مع «ريال» و«بربارة» التي لم تكن لتخفي تعلقها الشديد بصديقتها الشابة. وكانت «بربارة» تحب الاستغراق في قيلولة قصيرة بعد الظهر، عكس «كولبي» التي أخذت تنتهز هذا الوقت لتنفرد بألمها قرب البحيرة. استلقت «كولبي» على الأعشاب، وأرخت رأسها على يديها تحدق إلى زرقة السماء التي تناثرت قطعًا صغيرة بين أوراق الشجر. وأغلقت الشابة العاشقة عينيها، وشرد ذهنها مجددًا وراء الحلم الوحيد الذي يشغل بالها. وسقط شعاع شمس على وجهها، ففتحت ذراعيها تستقبله كطفلة سعيدة بالدفء والجمال المحيط بها. وفي مكان ما في داخلها أحست «كولبي» بشيء من السلام. عليها أن تتوصل سريعًا إلى حل يريحها من الصراع الذي يمزقها. لكن كيف؟ لا تستطيع البقاء في «كينكومبلا» على الرغم من معاملة «ريال» و«بربارة» الطيبة. وعادت تتعثر على الطريق الوعرة ذاتها... الطريق التي تقودها إلى «دارت». تُرى ماذا يفعل الآن؟ ربما تمكن في غيابها من حلّ المشاكل التي كانت تقيد علاقته بـ«روشيل». واسترجعت في ذهنها صورة الوجه الأسمر الوسيم الذي تضيئه عينان رماديتان واسعتان. تأوهت عاليًا وهي تحاول أن تدفن ألمها عميقًا في داخلها، أينما كانت، صورة «دارت» لا تفارقها. وحدقت إلى سرب من الطيور حلّق فوقها فاتحًا أجنحته للفضاء الرحب. آه لو تستطيع أن تصبح حرّة هي أيضًا!

هل هكذا يشعر كل الناس عندما يحبون؟ وهل يفقد المرء هويته ليذوب في شخصية الحبيب؟ كانت تعتقد أن شيئًا لا يمكن أن يفرق بينها وبين «دارت». هل يمكن أن يفترقا؟ لا. من المستحيل حدوث ذلك! وأحست أخيرًا بالتعب يشلّ أعضاءها وذهنها، فغرقت في نوم عميق. لم تنم منذ عدة

ليالٍ. وامتدت الظلال على جسمها الساكن، وسقطت بضع وريقات يابسة تداعب شعرها الناري بحنان. وأفاقت من سباتها على زقزقة العصافير التي أخافها وجود شخص ما. وفجأة انهالت عليها الحصى من شجرة قريبة، فرفعت رأسها لترى من يداعبها بهذه الطريقة. وخفق قلبها بشدة. «دارت»! كم تحبه، تريده لكن كيف تستطيع الهروب منه وهو مصمم على ملاحقتها لسبب لا تفهمه؟! رفعت رأسها باعتداد، واستقامت في جلستها وهي تراه يقترب منها صارخًا:

– مفاجأة! مفاجأة! لم تجب ولم تتحرّك من مكانها فسألها باهتمام:

– ألا تنوين العودة إلى المنزل يا «كولبي»؟ وسقطت خصلة شعر فوضوية على جبينها فرفعتها بعصبية. وحاولت «كولبي» السيطرة على رعشة يديها وهي تجيبه ساخرة:

– لم أكن لأعلم أنك حدّدت فترة إجازتي بوقت معيّن يا«دارت». ضاقت عيناه، وتقلّصت عضلات وجهه دلالة على التوتر المتفاعل في داخله.

– لا تتحديني يا صغيرتي. قد أغضب. وأنت تعرفين جيدًا معنى غضبي. ووضع يده على كتفها في لمسة تعرفها جيدًا.

– ألم تشعري طوال هذه المدة بشوق إلى رؤيتي؟ وجالت عيناه في وجهها تتفقدانه باهتمام دافئ.

– أرى أنك خسرت شيئًا من وزنك يا عزيزتي. ألم يطعمك «ريال» جيدًا؟ أشاحت «كولبي» بوجهها وهي تؤكد:

– إقامتي هنا كانت ممتعة جدًا يا«دارت». عاملني «ريال» و«بربارة» بمودة فائقة، واستقبلاني بصورة رائعة. شعرت بأنّي واحدة من العائلة، وبأنّي أعيش فعلا في منزلي. وارتدى «دارت» قناعه الساخر مرة أخرى.

– وهل تحمل كلماتك هذه اتهامًا مبطنًا؟

– لا، ما لم تكن أنت ترى فيها ذلك! وانحنت لتلتقط كتابها الذي سقط أرضًا.

– لا تتحديني يا«كولبي». لم أعد أحتمل المزيد. وفجأة اختفى كل أثر

للسخرية عن وجهه، وحلّ مكانها تعبير تراه «كولبي» للمرة الأولى.

– ماذا تريد منّي يا«دارت»؟ أن أعود إلى المنزل كطفلة مطيعة؟ لا أستطيع... وارتجف صوتها، فعرفت فورًا أنها ضعفت مرة أخرى، سيكون الأمر هكذا دائمًا مع «دارت»! وانطلقت تركض هاربة منه، كحيوان بري خائف من الوقوع في قبضة الصياد. وتمكن «دارت» من الإمساك بها في سهولة. أحاطها بذراعيه، فأفلتت منه وعادت تجري. لم تستطع أن تبتعد كثيرًا، تعثرت بجذع شجرة يابسة ووقعت باكية في العشب. انحنى عليها ورفعها بين ذراعيه، فخبأت رأسها بين يديها كطفلة صغيرة لا تعرف كيف تدافع عن نفسها.

– لا، لا يا «دارت». وكان جوابه الوحيد على دفاعها المستميت، قبلة طبعها بحنان على جبينها المبلل بالعرق. لم تتمرد بل استكانت بين ذراعيه وهي تشعر بإرهاق شديد. أبقاها «دارت» قريبة من قلبه.

– ستعودين معي يا«كولبي»... أحبك ولن أدعك تهربين منّي. آسف إذا كانت مشاريعك لا تتوافق مع رغبتي، لكني لن أدعك تبقين بعيدة عنّي بعد الآن سأعود بك إلى «كنغارا» حيث تنتمين. اتسعت عيناها للمفاجأة. يحبها! تكاد لا تصدق ما تسمع. تمتمت الكلمة وكأنها تحلم:

– تحبني...؟ الدهشة الطفولية في صوتها جعلت «دارت» يبتسم بحنان على الرغم من التوتر الذي مازال يشعر به يهز كل كيانه.

– نعم يا حبيبتي... نعم أحبك! وأحسّت «كولبي» بدفء أنفاسه. وعندما التقت نظراتهما أخيرًا رأت «كولبي» في عينيه كل الحب الذي كانت تتمنى. أحاطت عنقه بذراعيها، وألقت رأسها على كتفه بشوق. وللمرّة الأولى منذ أسابيع طويلة راحت تتنفس بعمق. وبعد لحظات تمكنت أخيرًا من القول:

– وعندما أفكر في أني كنت أغار من «روشيل». ونظرت إليه عاتبة، فرأت وجهه يشرق فرحًا... «دارت» كما عرفته دائمًا... فارس أحلامها.

– وما العيب في قليل من الغيرة يا«كولبي»؟ أعترف بأني ربما أكون قد بالغت قليلا في إظهار اهتمامي بها. لكنها الآن في طريقها إلى «الولايات المتحدة». هكذا

أخبرتني «سوزان». كنت أعلم أن قلبي لا يمكن أن يكون إلا لامرأة واحدة، نارية الخصلات وحادّة الطباع. أحببتك يا«كولبي» منذ الليلة الأولى التي عدت فيها إلى «كنغارا». وأنزلَ يدها التي كانت تداعب شعره ليعانقها بحنان.

– تبًّا لك يا«دارت». لماذا رضيت لي بكل هذا العذاب؟ آه لو تعرف كم عانيت في الأسابيع الماضية! وضمّها إلى صدره بقوة، يريد أن يحمي حبّه الصغير من أي ألم.

– كان عليّ أن أمنحك بعض الوقت لأختبر صدق عواطفك تجاهي. لكني لم أستطع الصبر أكثر من ذلك. أنا لم أكن قط بارعًا في الانتظار. نحن لبعضنا منذ ولادتنا. الطبيعة كلها كانت تنتظر هذه اللحظة. أنت جزء منّي يا«كولبي». جزء من قلبي ومن عقلي. وغرّدت السعادة في عينيها الخضراوين. كم تحبه. إن «دارت» رجلها.

– وأنت أيضًا جزء منّي يا حبّي الوحيد. هأنا أعترف لك بشعوري فلا تستغل الفرصة لتمارس سيطرتك عليّ. وعادت تغرق وجهها في كتفه. ولم يتحركا من مكانهما لحظات طويلة. استغرق «دارت» في تأمل جمالها. لكنه أفاق أخيرًا من نشوته.

– فلنعد الآن إلى «ريال» و«بربارة». سنخبرهما بما يتوقعان سماعه. فأجابته بمرح:

– سنخبرهما بأني سأعود إلى المنزل أخيرًا. ابتسم لها بحنان... وتملك، وقال:

– لا يا حبيبتي. سنخبرهما بأنه سيكون لـ«كنغارا» سيدة جديدة، وأن مقاطعة «كينغ» تنتظر عروسي الجميلة.

تمت بعون الله